ديـوَان النُّبَاحِى

دراسة وتحقيق

لديوان متخيل من الشعر العربى القديم

(نص نادر ينشر لآخر مرة)

الدكتور

حـامد طـاهر

مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبرا

ت: ٣٩٠٠٨٦٨ - القاهرة

[... وَأَنَا قَدْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أُبكِيكَ بِبَيْتٍ وَاحدٍ من الشّعْرِ ، وَلَكنّني لا أَقْدِرُ أَنْ أُضْحِكَكَ بِأَلْفِ قَصِيدَة !]

من رسالة النُّباحى إلى صديقه
ابن البَكّاء العَبْسى ..

أولا : الدراسة

التعريف بالشاعر : اسمه ولقبه وكنيته – تاريخ وفاته – ظروف وفاته – شيوخه – تلاميذه مكانته بين شعراء عصره – رسائله النثرية : نماذج هامة جدا .

عصره : الحالة السياسية – الحالة الثقافية والفنية .

خصائص شعره : تقسيمه إلى ثلاث مراحل :

المرحلة القرمزية – المرحلة الاستوائية – المرحلة الدبوسية .

تحقيق النص : وصف النسخ الثلاث وبيان قيمة كل منها – عملنا فى التحقيق .

التعريف بالشاعر : اسمه ، ولقبه ، وكنيته :

هو أبو مرزوق عبدالله بن ابراهيم بن مَكين بن حَنْظلة النُّبَّاحى ، وينتهى نسبه إلى آدم عليه السلام .

ولقب «النُّبَّاحى» نسبة إلى مدينة نُباح (بضم النون) الواقعة على مقربة من مصب نهر سَيْحون فى اتجاه المنبع .

أما كنيته «أبو الليل» فقد عرف بها نظراً لكثرة عشقه للّيل ، وسهره فيه ، وقضاء معظم الوقت متأملا نجومه ، ومتجولا فى خرائبه ومغانيه .

تاريخ وفاته :

اختلف المؤرخون اختلافا كبيرا فى تاريخ وفاته ، تماما كما اختلفوا فى تاريخ مولده .

فصاحب (طبقات الفحول والحلاليف) يورد خبرا عن لقاء جرى بين النُّباحى وأبى عباس الماوى ، فى شهر جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وأربعمائة[١] ، وهذا يدل على أن وفاة النُّبَّاحى لابد أن تكون تاليه لهذا التاريخ

لكن صاحب (العقود والأقراط) يؤكد أن وفاته إنما تقع بين سنتى ٦٦٦هـ و٩٩٩[٢] - وهى فترة طويلة جدا كما هو واضح .

وقد رجعنا لمعظم كتب التراجم والسير التى تغطى هذه الفترة - وهى بالمناسبة غير كاملة ، كما أنها غير دقيقة على الإطلاق - فلم نعثر للنباحى على أى ذكر ، اللهم إلا إشارة خاطفة ، وردت فى كتاب مجهول المؤلف ،

(١) ٢ / ٣٥٤ .
(٢) ٣ / ١٥

وغير محدد العنوان ، تقول إنه فى سنة ثمانمائة وثمان وثمانين قد حدثت مجاعة فى بعض القرى المحيطة بنهر سَيْحون من ناحية الشرق ، وإنه قد «نَفَقَ فى هذه المجاعة عدد كبير من الحمير ، ومات بها خلق كثير من البشر، ومنهم النُّواحى (كذا) ... »

ولما كانت كلمتا (نُباحى) و(نُواحِى) قريبتين ، فقد ظن المستشرق النمساوى هـ . براخت Brakht أنهما كلمة واحدة ، ومن ثم فقد رجّح أن تكون تلك السنة تاريخا لوفاة النباحى[1] .

لكن هذه السقطة من «أوهام المستشرقين» ، وقد حققنا - بالاعتماد على «معجم الشخصيات المجهولة»[2] المطبوع فى حيدر آباد الدكن سنة ١٨٠٣م كلمة «نُوَاحِى» ، وتبين لنا أنها عَلَمٌ على شخص آخر «كان كثير البكاء على ما ضاع منه» ، وهذا يؤكد صلتها الحميمة بالنواح والعويل ، وليس بمدينة نُبَاح التى ينتسب إليها أبو مرزوق .

والنتيجة أننا نميل إلى أن شاعرنا توفى سنة خمس وخمسين وخمسمائة ... وهكذا نكون أول من قطع الشك باليقين .

ظروف وفاته :

يروى أبو بكر الحانوتى فى «وفيات الأموات» ، أنه فى إحدى ليالى الشتاء الباردة ، اجتاح الصقيع مدينة نباح ، وملأ الشوارع والأزقة ، حتى يقال إنه عاق الناس عن فتح أبواب منازلهم أو إغلاقها ، وعطلهم عن الخروج إلى أرزاقهم ، أو الرجوع منها .. وفى صبيحة تلك الليلة ، عثر العسس على

(١) انظر مقاله الشهير فى حوليات الجمعية الملكية النمساوية ، المجلد XXII من ص 119-38 .

(٢) جـ ١١ ص ٣

جثة النباحى متجمدة من شدة البرد ، وقد ملأ الثلج أنفه وأذنيه ، وعندما حملوه إلى داره ، وجدوا بالقرب من سريره أوراقا ملفوفة بعناية فائقة فى قصبة من الخشب ، وعليها كتبت عبارة «ديوان النباحى»(١)

انتشار الديوان :

ويحدثنا منصور الجواهرجى عن تلك القصبة قائلا : «... وقد نقل أصحابه تلك القصبة إلى متولى خزانة الكتب المفقودة ، الشيخ عبدالمانع المُغْلَق ، فحفظها برسم الوقف ، ويروى أنه منع الناس من الاطلاع عليها خوف الفتنة ، إلى أن توفى فسمح ابنه الذى تولى مكان أبيه ، وكان «شابا ظريفا» مطلعا على علوم الأوائل ، وأجاز أن يقرأها الناس ، وطلبة الأدب ، فأعجب بها التلامذة ، وأقبل على سماعها خلق كثير ، ضاق بهم مسجد السوق ، فانتقلوا إلى ظاهر المدينة ، وأقاموا الليالى يقرأون أشعار النباحى ... واستمر الوضع على تلك الحال ، إلى أن قيض الله تعالى بعض ذوى اليسار ، فاستنسخوها ، وقاموا بتوزيعها على الغرباء ، وضيوف مدينة نُباح، فكان أن انتشرت ، وأصبحت لها شهرة واسعة»(٢)

شيوخه وثقافته :

يذكر المؤرخون - فى شبه إجماع عجيب - أن النبّاحى لم يترك الاستفادة من شيوخ عصره على اختلاف طبقاتهم وعلومهم . فقد درس كل الفنون اليدوية ، والعلوم اللغوية والبلاغية ، وقرأ الأدب على مَشْيخة مدينة نُبَاح ، وكانوا يتميزون بالجمع بين «رواية الأشعار ، ومتابعة الأخبار ،

(١) حـ ٧ ص ٣٣٣ ط . ليدن

(٢) انظر : اليواقيت الحمراء حـ ١٣ ص ٧٠٣ ، ط . الآستانة ١٢٢٩ هـ

والسهر فى المجالس حتى طلوع النهار» .

ومما يروى عنه أنه خالط جميع الطبقات الاجتماعية ، واهتم كثيرا بملازمة أهل الحرف ، كالسمّاكين ، والحمّالين ، والحدّادين ، وصانعى الحُصُر والسّلال(١) .

أما دكاكين الوراقين فكانت مكانه المفضل ، يسهر فيها حتى الفجر ، يقول أبو بكر النَسّاخ : «شاهدته بعينىّ هاتين يشترى من السوق الشمعة والشمعتين ، ثم يذهب إلى أحد الوراقين ، ويستأذنه فى تنفيض الرفوف ، وترتيب الأوراق ، وقبل أن يأذن له الرجل ، يشرع النُبَاحى فى التهام ما فى الدكان من علم وأدب ، حتى كانوا يطلقون عليه تندرا «فأر الحروف» ، ويقال إنه حفظ فى ليلة واحدة معلقة عمرو بن كلثوم التى مطلعها :

أَلَا هُبِّى بصَحْنِكِ فاصْبِحِينا ....

واستظهر فى ثلاث ليال متوالية «حماسة أبى تمام» ، وكاد يكمل «لزوم ما لا يلزم» لأبى العلاء المعرى ، لولا ضياع الجِلْد الأخير من الكتاب»(٢) .

وعلى ذكر لولا ، فإننا لا نذيع سرا إذا قلنا : إنه لولا خشيتنا من الإطالة والإملال لأوردنا ثبتا بمئات الأسماء التى تتلمذ عليها النباحى ، ولكننا نحيل القارئ المتلهف إلى «معجم البلدان النائية» حيث يخصص المؤلف المجلد التاسع عشر لأسماء هؤلاء الأساتذة ، ومؤلفاتهم ، والموضوعات التى لم يجرؤوا على تناولها ، والمشكلات التى لم يتعرضوا لحلها .

(١) الحُصُر جمع حَصير ، والسلال جمع سَلّة . وكلاهما يُصنَع من السَّمَار والبوص بعد أن يُقطَع ويُجفَّف . وكان صنعهما مزدهرا فى مدينة نباح . ويقال إنها كانت تصدرهما للخارج .

(٢) انظر «مسامرات الأخبار فى تحصيل الأشعار» ، مجلد ٥ ص ٧٨٠ .

تلامـــيذه :

من العـجـيب حـقـا أن النبـاحى ، على الرغم من كثرة من أفـادوا منه ، وتأثروا به ، واستلهموه - لم يُخلّف تلميذا واحدا . وهنا نترك المجال لصديقه اسماعيل الحَصّار(١) يحدثنا عن السبب فى ذلك ، يقول :

«ظل النباحى طيلة عمره يُقرّ بأنه طالب علم وأدب ، ولم يعتبر نفسه قط أستاذاً يمكن أن يتلقى عنه غيره ، على الرغم من علو كعبه فى الصناعة ، وقصور المشاهير فى عصره عن أن يُرْبِعُوا إرِبَاعه ...

وأذكـر أنه فى ذات يوم من أيام الصـيف ، كنت أجلس مـعـه فى ظل المسجد الصغير بعد صلاة العصر ، إذ دخل علينا طالب ، قادم من بغداد ، وهو يسأل بلهفة عن النباحى ، وعندما دللته عليه ، توجه إليه باحترام شديد، وقال له : يا مولانا ، الأدباءُ فى بلادنا يذكرونك بالخير ، وقد أوصانى كثير من شيوخى بالسفر إليك ، والأخذ عنك . فأعرض عنه النباحى قائلا : يا بنى عُدْ من حيث أتيت ، فما عندى أهونُ مما سمعت ! ، وقد عاتبته بعد أن خرج الطالب البغدادى مكسور الخاطر :

لماذا صرفتَه يا أبا مرزوق ، وكان بإمكانه أن يكون طريقك إلى الشهرة ؟!

فأومأ إلى متهكما ، وقال :

- أَيَّ شهرة يا اسماعيل ، وأنا عبد ضئيل !»(٢)

(١) كان لإسماعيل الحَصّار دكان يبيع فيه الحُصُر على نهر سيحون .

(٢) انظر القصة فى : اتحاف السامع بأخبار التواضع ، ص ٣٧٥ .

مع شعراء عصره :

عاصر النباحى عدداً كبيراً من فطاحل الشعراء لكنه بذهم جميعا ، ومع ذلك فقد كان شديد النفور من الإنشاد فى المحافل العامة ، أو الوقوف بأبواب الولاة والسلاطين(١) .

يحكى أن الوزير الفالوذجى استدعى النباحى ذات يوم ، وعرض عليه أن يقدمه إلى بلاط «زند الدولة» وكان يعج بالشعراء ، ولكنه رفض ، فقال له :

- إذا كنتم لا ترغبون فى نفع أنفسكم ، فلماذا لا تعملون حسابا لأسرتكم؟!

فرد النباحى قائلا :

- لقد توفيت الوالدةُ بعد الوالد ، وانقطع عنى خبزُ العم والخال ، والزوجة مريضة لا تأكل ولا تشرب ، وابنى الوحيد مرزوق ، قد ترك البيت ، وذهب للعمل فى السوق .. فعلام السعىُ والاندفاع ، وتعفير الوجه برؤية الأَنْطاع ؟!

فقال له الوزير : كأنك تقصدنى يا شاعر السوء!

ونهض فنهض بنهوضه جميعُ مَنْ كان فى المجلس ، وتركوا النباحى وحده يهمس :

لقد سألنى الوزير فأجبت ، ولو أنه لم يُوَجِّه لى السؤال ما نطقت!»(٢)

ولا شك أن هذه القصة تشير إلى أمر غاية فى الأهمية ، وهو أن الوزير الفالوذجى ، وكان خبيرا بأقدار الشعراء ، لم يستدع النباحى أصلا ، ولم يعرض عليه تقديمه إلى بلاط زند الدولة إلا لعلمه بمدى قدراته الشعرية ،

(١) توجد فى ديوان النباحى قصيدة وحيدة يمدح فيها رمح الدولة الشمخانى ، ولكننا نميل إلى أنها كانت من قبيل التدريب على فن المديح ، الذى سيطر على كل شعراء العصر . وعلى أية حال ، فالقصيدة تنتمى إلى المرحلة القرمزية . انظر ص ١٧ من الدراسة ، وصفحة ٣٠ من الديوان .

(٢) انظر الأجوبة المسكته حـ ٩٦/٢ .

وإدراكه الشديد لما كان يتمتع به شاعرنا من طاقات بلاغية متميزة .

أما شعراء مدينة نُبَاح ، وكانوا لحسن الحظ يقولون ما لا يفعلون ، فقد كانوا يمقتون النباحى أشد المقت ، ويتحينون الفرصة للنيل منه ، وفى إحدى الليالى ، اجتمعوا فى دار أحدهم ، وأجمعوا على التخلص من النباحى .

وقد اقترح أحدهم أن يسرقوا حماره الوحيد ، لكى يمنعوه من التنقل بين دكاكين الوراقين .

وقال آخر : بل نحفر أمام بيته حفرة عميقة ثم نغطيها بالقش وعيدان القصب ، فإذا خرج وقع فيها وتخلص الجميع منه .

وذهب ثالث : إلى أن يحرقوا بيته ، فتأتى النار عليه وعلى أشعاره(١) .

ولما أعيتهم الحيلة ، قرروا أخيرا أن يشيعوا بين أهل المدينة أن النباحى قد جُنّ ، وأن عقله قد اختلّ .. وعندما سمع الناس بالخبر ، توافدوا إلى بيت النباحى ضاربين كفا بكف ، وهم يكبّرون ويهللون وعلت هتافاتهم قائلين : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ...

وحين سمع النباحى تلك الجلبة ، اعتدل جالسا وكان متكئا على وسادة من قش ، وسأل : علام هذه الضجة ؟ فقالوا : الناس بالباب يسألون ، وهم لأحوالك متطلعون ، فخرج إليهم ، ووزع البشر عليهم ، وتحدث معهم على أكمل ما يكون من العقل الرشيد ، والمنطق السديد .. فرجعوا وهم يتعجبون

(١) هذه الاقتراحات الشيطانية الثلاث أوردها السّماوى فى كتابه : «مناهج الإخفاء فى الإيقاع بمشاهير الشعراء» ص ٣٧٥ طـ بيروت .

(٢) انظر «الوجيعة ، فى الكيد والوقيعة» حـ ٧ ص ٨٩٠ وقد حاول بعض الباحثين الأوروبيين الاعتماد على هذه القصة لإثبات حالة من الخلل العقلى لدى النباحى ، ولكننا نرد عليهم ، ونؤكد أن هذا الاتهام لا يقوم على أساس.

من سموم الإشاعات ، حين تطلقها ألسنة الحَيّات !»(٢)

رسائله النثرية :

عثر الباحثون في بيت النباحى ، بالاضافة إلى ديوان شعره ، على بعض القصاصات التى تشتمل مسودات لرسائل شخصية ومكاتبات كانت موجهة إلى بعض أقاربه وأصدقائه .

ونظرا لما أصبحت هذه الرسائل تكتسب فى الوقت الحاضر من أهمية خاصة لدى علماء النفس والأنثروبولوجيا، فقد حرصنا على أن نورد هنا بعض «مقتطفات» منها ، على أننا نعد الباحثين المهتمين بتراث النباحى أن ننشر فى القريب العاجل كل رسائله ومكاتباته ، وبذلك نسهم فى ملء فراغ المكتبة العربية بالأعمال الكاملة لهذا الشاعر الكبير .

١ - المقتطفة الأولى :

[من خطاب موجه إلى خاله أبى أيوب الشيال :]

« ... ويؤسفنى أن أخبرك بأن كل ما طلبتَه منى لم أتمكن من تحصيله حتى الآن ، ولعلنى فى القريب العاجل أُوفّق فأرسله لك مع أحد عمال البريد، الذين تعرفت بهم أخيرا ، وإن كنت غير واثق من ذلك تماما»

٢ - المقتطفة الثانية :

[من خطاب غير مؤرخ ، موجه إلى شخص مجهول :]

« ... وهذه الأمور التى حدثتنى عنها لا تُمثّل عندى أى أهمية ، وقد نسيتها تماما بعد قراءة مكتوبك الأخير ، وأصبحتْ بالنسبة لى كأنها لم تكن!»

٣ - المقتطفة الثالثة :

[من خطاب شديد اللهجة إلى ... العباس الملحمى :]

« ... وكيف تُوجّهُ لى اللوم ، وأنت باللوم أحق ، وكيف يسهل على قلمك هذا الكلام ، وهو على النفس أشق ، إن القلب لينفطر انفطارا ، وليس ما يملأ الروحَ وحشةً مثل الصحارى!» .

٤ - المقتطفة الرابعة والأخيرة :

[من خطاب ممزق إلى أحد الأصحاب :]

« ... وضرورى جدا جدا أن ترسله لى مع خادمك ، وإذا كان ثقيلا فليؤجّرْ مركوباً مناسبا ، وسوف أدفع له أجرته ، ولك خالص شكرى ، والسلام» .

عصـــــره :

يمكن القول بأن العصر الذى عاش فيه النباحى يعتبر من أشد عصور الحضارة الإنسانية اضطرابا ، وأكثرها غرابة .

فمن الناحية السياسية : اتسعت أطراف الدولة اتساعا كبيرا ، باستثناء المنطقة الواقعة بين الشام ومصر ، فقد اقتطعها أهل الغدر ، كما تعددت الأقاليم ، وتغلب ملوك الطرائف : كل على إقليم ، وأصبحت بينهم علاقات المنافسة فى مجال العظمة والأبهة ، واستقدم كل منهم فى بلاطه عددا كبيرا من المطربين ، ولم تعد الحروب تنشأ بينهم نتيجة ما عقدوه من معاهدات استهدفت احترام الحدود الهشة ، وعدم التدخل فى الشئون العائلية ، وذلك على الرغم من شدة ملاحظة كل منهم للآخر ، وفتح العين والأذن والأنف

(١) انظر : القطائف فى عصر ملوك الطرائف . المجلد ٢٨ صفحات ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ وكذلك ٢٢٧ .

رصداً لحركاته ، واطّلاعاً على نقائصه وسوءاته ..(١)

ويصور المؤرخ الكبير المفروقى هذه الفترة بكلمات تنزّ بالدمع والعرق ، وتكاد تبلّل الورق . يقول :

«وقد امتد عصر ملوك الطرائف ما يقرب من قرن ، مملوء بالقهر والحزن فيها استولى «السّلاتِطيّون» على مقاليد الرئاسة،وأداروها قهرا وبلا كياسة واستأسد الأعداء المحيطون بأطراف الدولة ، عندما وجدوها شبه منحلة ، كما قدم إلى الديار الشامية عدد كبير من «الفلاتية» ، واستطاعوا فى غياب الوعى أن ينشئوا لهم محمية ، وتصبح لهم عصبية ..

وفى تلك الفترة صار لكل إقليم بلاط ، يَرْطَعَ فيه المنافقُ وزاط ... ذلك أن أُذُن الولاة قد صارت تؤذيها الريح ، ولا ترتاح إلا إلى المديح ...

أما التجار فقد جاوز جشعُهم مستوى المقياس ، وكادوا يفترسون بأسعارهم الناس ...

وتنمّر أصحابُ الحِرَف بكل ذى حاجة ، وأصبح جُلُّ همّهم إحراجه ..

أما الفلاحون فقد تشبهوا فى كل شىء بأهل المدن ، ولم يعد عمرو بأقبح من حسن !

وهكذا فإننا نضرع إلى الله أن يزيل الغُمّة ، وأن يُنقذ برحمته من الغرق سفينة الأمة»(١)

(١) المفروقى : الحوليات الكبرى جـ ٢٧ ، الصفحات ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥

الحالة الثقافية والفنية :

وعلى الرغم من الاضطراب السياسى الذى ساد عصر النباحى ، فقد ازدهرت فى المقابل حركة التأليف ازدهارا كبيرا . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الناس أقبلوا على التعليم – وليس العلم – فانتشرت المدارس ، وراحت كل أسرة تدفع بأبنائها لسرعة الحصول على «إجازة» تكون سلاحا على غدر الزمان ، أو سُلّماً إلى دروب الكسب ، أو وجاهةً بين الأتراب . وتحت الحاح هذه الرغبة الشرهة ، أقبل الأساتذة والمعلمون على «التصنيف المنهجى» وهو نوع من التأليف ، يتميز باصطياد عدد من نصوص المؤلفين القدامى ، وبعض المحدثين الغافلين ، وترتيبها على نحو معكوس ، ثم إخراجها فى ثوب قشيب ، وتوقيع اسم المصنف عليها مصحوبا بأعلى الألقاب العلمية ، المتعارف عليها فى الأوساط الأكاديمية .

أما حركة الترجمة فلم تكن على نفس المستوى ، إذْ اعتبرها معظم العلماء مجلبة للأفكار الأعجمية التى تُزيّن لأبناء الأمة حياة الأعداء ، ومن ثَمّ فقد رفضها المجتمع رفضا بدون تبرير . وبعض الذين تعاطوها تحايلوا على ذلك بنقل الكتب الأعجمية نقلا غير أمين ، ونسبوها بعد تحريفها إلى أنفسهم، باعتبار أنها من تأليفهم هم أنفسهم ، وبالتالى فقد تجنبوا اللوم ، وتميزوا فى القوم !

وقد انتشر فى ذلك العصر حب الغناء ، وكثر المطربون والملحنون إلى حد أن أصبحت لهم نقابات ، وتلقف الناس أغانيهم ومواويلهم بكل لهفة ،

وصاروا يرددونها في كل زفة(١) وتسابق الناس في إحياء الحفلات ، مما ساعد على غلاء أجور الطَبّالين والزمّارين والراقصات .

ويذكر الصّنجهاني أن قريته «صِنْجَهانة» وحدها كانت تضم ثلاثمائة ألف مطرب ومطربة ، مع أن عدد سكانها كلهم لا يتجاوز ثلاثمائة ألف وخمسين نسمة(٢) ، ويعلق مسعود الأطرش - وهو معاصر للصنجهاني - بأن هؤلاء الخمسين هم أسرة الصنجهاني نفسه : حاول أن يستثنيها من السوء ، فما زاد على أن جعلها تعيش في وسط موبوء ، على أن الصنجهاني نفسه كان ذا خفة في عقله ، ولا ينبغي أن يوثق في نقله(٣).

ومهما يكن من شيء ، وعلى الرغم من تحامل مسعود الأطرش على معاصره الصنجهاني ، فإن كليهما يثبت تَجنُّبَ أهل العصر للصراع ، وميلهم الشديد إلى تشنيف الأسماع !

(١) للنباحي قصيدة جيدة تندد بهذا الاتجاه . أنظر ص ٣٢
(٢) إبعاد النقص ، عن أهل الرقص حـ ٧ ص ٢٥٧ وما بعدها .
(٣) أنظر كتابه : «أعراض الزمانه ، في خصائص أهل صنجهانة» المجلد الثالث ، ص ٤١٣ .

خصائص شعره :

يمكننا ببساطة أن نقسم شعر النباحى إلى ثلاث مراحل رئيسية ، تتميز كل منها بخصائص معينة ، وسمات محددة ، وفيما يلى إشارة موجزة لهذه المراحل[١] :

المرحلة الأولى :

ويمكن أن نطلق عليها المرحلة القُرْمُزية[٢] ، ولا نعنى بها اللون القرمزى الذى ميز أعمال الرسام العالمى الشهير بيكاسو فى فترة معينة ، وإنما المقصود هنا هو مرحلة البدايات الشعرية الأولى ، التى كان النباحى يحاول فيها صياغة «القصيدة» على منوال الشعراء السابقين عليه ، وخاصة شعراء المعلّقات ، والصعاليك ، وبعض كبار وصغار العصريْن الأموى والعباسى .

وفى هذه المرحلة المبكرة نجد النباحى يطرق تقريبا نفس الموضوعات التى طرقها هؤلاء الشعراء (مدح ، فخر ، رثاء ، هجاء ، وقوف بالأطلال ، شكر على هديه ، ... الخ) كما يلتزم شاعرنا بعمود الشعر : يلازمه ولا يكاد يبرح عنه إلا فى بعض الأوقات العصيبة التى تفرضها عليه حاجاته الطبيعية .

والقصيدة عند النباحى - فى تلك المرحلة القرمزية - لا تكاد تتميز بسمات شَخْصَانية ، وإنما هى نفسها سمات الشعراء الذين يحاكيهم : فهو عندما يحاكى مثلا قصيدة للنابغة أو فرزدق ، أو دعبل الخزاعى ، تأتى قصيدته وكأنها هى هى قصيدةٌ واحدٍ من هؤلاء لفظاً ومعنى ، وبحراً وقافية.

(١) حاولنا فى هذه العجالة أن نوجّه أنظار الباحثين إلى مثل هذه الدراسة التحليلية التى يمكن أن تأتى بنتائج هامة للغاية فى كل المجالات .

(٢) قَرْمَزَ : بَدَأَ محاولات كتابة الشعر . القاموس الاكبر .

وخلاصة الملاحظات الموضوعية التاريخية المقارنة لهذه المرحلة ، أن النباحى يؤكد للجميع وبما لا يدع مجالا للشك أو التردد - أنه يمتلك نفس الموهبة ، ونفس الوسائل التكنيكية التى يمتلكها الشعراء السابقون .

وقد ذهب العلامة أ. روكى A . Rocky فى بحثه الهام المنشور بالمجلة الأفروآسيوية (العدد ١١٣ لسنة ١٨٤٠) إلى أن من يريد أن يطلع على خصائص الشعر العربى كله : يمكنه أن يرجع ببساطة إلى شعر النباحى ، وخاصة فى مرحلته القرمزية(١) .

المرحلة الثانية :

وهى التى أجمع الباحثون على تسميتها بالمرحلة الاسْتوائية . وفى هذه المرحلة يَقْوَى عودُ الشاعر ، ويصبح صوتُه أجشّ ، وتبدو عليه علامات البلوغ الشعرى المبكر ، وهنا يغدو الحزن المأساوى هو الغالب على معظم إنتاجه ، الذى يحس القارىء له بنهكة خاصة ، ويكاد يشم له رائحة متميزة!

ومن ثم جاء وصف المرحلة بالاستوائية نسبة إلى الفعل «استوى» أى نضج .. والواقع أن القصيدة النباحية تنضج بالفعل ، وتصبح جاهزة للتقديم إلى جوعى البطن والروح معا .

وقصائد هذه المرحلة الاستوائية تتميز كلها، وبدون استثناء واحد ، بطابع مأساوى فاجع : والشاعر فيها إما جائع يتلوى ، أو عطشان يتحرق ، أو يائس يتهاوى ، أو سائل يستجدى ، أو حائر يتخبط ، أو مريض يتوجع ... ومع ذلك فنحن لا ننكر أن الباحث عن المثالب يمكنه أن يعثر هنا أو هناك على بعض لمحات السعادة ، أو لمعات الفرح ، ولكنها ما تلبث أن تختفى

(١) البحث بعنوان The Shalaktesten der humourtath de Nubahi

وتنطفىء وتتلاشى فى ظلام الوحشة القاتل الذى يلف حياة النباحى ، والتى يجثم فوقها عصره البغيض الخَدّاع ، فيكاد يخنق أنفاسه ، ولا تخرج منه إلا أَنّات متوجعة ، يمكن سماعها بوضوح من تحت الأنقاض !

ونحن نذهب إلى أن هذا الطابع المأساوى الحزين الذى يغلف قصائد تلك المرحلة الاستوائية هو السبب الحقيقى وراء إطلاق كنية «أبى الليل» على شاعرنا المسكين ، وليس كما ذهب كل المؤرخين المغرضين أنه كان يعشق الليل ، ويتجول بين خرائبه ومغانيه(١) .

المرحلة الثالثة :

وهى التى ذهب اثنان من الإخوة الباحثين(٢) إلى تسميتها : المرحلة الدَّبَوُّسِيَّة . وهى المرحلة التى خرج فيها النباحى من المرحلة الاستوائية ليدخل مرحلة أخرى جديدة تتميز بالإحساس الساخر بعدم الجدوى ، والاستهزاء الحاد والمدبب كرأس الدبّوس !

يقول الباحثان بالحرف الواحد : «ولا يرجع هذا الإحساس إلى اليأس من تغيير العالم بمقدار ما يرجع إلى «الشك» فى مقدرة الشاعر نفسه على هذا التغيير» ثم يتساءلان : ما هي وسيلة الشاعر فى تلك المرحلة ؟

وتأتى اجابتهما قاطعة : «إنه يستخدم الـ ironie الذى استخدمه من قبل كل من أرستوفانس ، والحطيئة ، وأبو العلاء ، ونيتشة ، وكافكا .. وكل الموتورين . وقد استطاع النباحى بهذا الأسلوب الساخر أن يصل إلى

(١) انظر ص ٥ من هذه الدراسة .

(٢) عباس عطا الله ، واسماعيل عطا الله فى دراستهما الأخيرة عن تاريخ الشك فى الأدب العربى ، دار الحيران ، بيروت ١٩٧٥ .

مستوى متقدم للغاية فى مجال الكشف عن قارته المجهولة ، وسط مملكة الماء»(١) .

ومن جانبنا نقول : إن هذه المرحلة الدبُّوسية قد استمرت مع النباحى حتى آخر أيام حياته ، وقد طالت إلى حد ما ، نظراً لأن الشاعر قد آثر ضربا من العزلة ، كان قد ضربه على نفسه ، بالإضافة إلى ما ضربه عليه المجتمع من ضرائب واستقطاعات !(٢)

تحقيق النص :

اعتمدنا فى تحقيق «ديوان النباحى» على ثلاث نسخ خطية ، نادرة الوجود، قمنا بجمعها من ثلاثة أطراف المعمورة ، ونقصد بها : إفريقية ، وآسيا ، وأمريكا .

ونلاحظ بدءا عدم وجود أى نسخة من ديوان النباحى في مكتبات أوروبا ، على الرغم من أنها تمتلىء بالمخطوطات العربية ، التى قام بجمعها أفواج الرحّالة والمستشرقين ، خلال القرنين الماضيين ، وأودعوها فى مكتباتهم ، وأصبحت تمثل لهم - الآن - ثروة اقتصادية كبرى : لأن الطلاب العرب صاروا يفدون إلى تلك البلاد طلبا لنسخها أو تصويرها ، فيضطرون للإقامة بها - والإقامة باهظة التكاليف كما نعلم - وأسعار الميكروفيلم وتحميضه وطبعه عالية جدا ..

وفيما يلى وصف دقيق لكل نسخة من المخطوطات الثلاث التى اعتمدنا عليها :

(١) المرجع السابق ، ص ٧٠ وانظر الفهارس الملحقة بآخر الكتاب .

(٢) انظر قصيدته فى رثاء حماره بالديوان ص ٦٥ .

أ - نسخة إفريقية :

توجد هذه النسخة الفريدة فى مكتبة ملحقة بمسجد سيدى عبدالرحمن ، الواقع على الطرف الجنوبى الغربى من بحيرة تشاد . وهى محفوظة فى جلد غزال برى وبها خروم كثيرة ، وعليها بعض السماعات على عدد من كبار الأدباء كالترخانى ، والمنبقى ، وابن السماد . ومسطرتها ٢٥×٣٦ . وعدد أوراقها أربع وخمسون ورقة ، وهى مكتوبة بخط النسخ المختلط بالرقعة ، وأوائل القصائد مكتوبة بالحبر الأحمر ، الذى لا يكاد يظهر ..

وترجع أهميتها الخاصة إلى ذكر «موضوعات القصائد» قبل القصائد نفسها . ويبدو بوضوح أنها من عمل أحد علماء الأدب الأفاضل : عَلَّقها لنفسه لكى تساعده فى التدريس . ونرجح أنه كان معاصرا للنباحى ، أو على أكثر تقدير فى العصر التالى له مباشرة . لأن هذه المقدمات دقيقة للغاية ، وهى تلخص بالفعل موضوعات القصائد .

وقد رمزنا لهذه النسخة التى جعلناها أصلا فى التحقيق بالحرف (ق) - لأنه أبرز حرف فى كلمة إفريقية التى تنتسب اليها المخصوصة .

ب - نسخة آسيا :

وهذه النسخة العجيبة محفوظة بمكتبة أحد المسلمين بالصين . وقد سمح لأحد الدبلوماسيين العرب فى القرن الثامن عشر الميلادى باستنساخها . وقد وصلتنا هذه النسخة عن طريق المصادفة البحته ، ولولا هذه المصادفة لما وصلتنا . فالحمد لله على الحظ الحسن !

وترجع أهمية هذه النسخة العربية إلى أن صاحبها أو بالأحرى ، ناسخها

العربى ينقل الألفاظ بعناية بالغة ، ويشير فى أثناء النقل إلى عدم معرفته بمعانيها . ولكنه يؤكد فى كل ورقة تقريبا أنه قد نقل النص بكل أمانة ، لأنه – فيما يذكر – يحسب «أن هذا الكلام شبيه بكتاب كليلة ودمنة الذى تعلمه فى الصغر ، وهو الكتاب الذى نقله الفرس عن الهنود ، والعرب عن الفرس ، واستحق ناقله إلى العربية وهو الأديب ابن المقفع أن ينال تقدير الأجيال من بعده» .

والدبلوماسى العربى واعٍ تماما لهذا الكتاب البديع النظم ، على حد قوله، وقد وعد أكثر من مرة أنه سوف يضيف تاريخ حياته ومشاهداته إلى الكتاب، ولكن هذا الوعد لم يتحقق ، وذلك الجزء الشخصى الهام قد ضاع ، فافتقدنا بذلك اسم هذا الشخص ، وتاريخ نسخه ، ومكان الرجل الصينى الذى سمح له بنقل النسخة ، وكل شىء تقريبا ... ما عدا النص العربى الصحيح لديوان النباحى .

مسطرة هذه لنسخة ٣٧×٤٢ . وهى ذات ورق صقيل . وعدد سطورها ١٨ وتبلغ صفحاتها ١٠٨ ورقة . وهى مجلدة بورق مغطى بطبقة من حرير دودة القز .

وقد رمزنا لهذه النسخة بالحرف (س) – لأنه أبرز حرف فى كلمة آسيا التى تنتمى إليها المخطوطة .

حـ – نسخة أمريكا :

كانت المفاجأة الكبرى أن تظهر هذه النسخة المدهشة من ديوان النباحى فى تلك القارة البعيدة جدا عن موطن الشاعر (تقطع الطائرة – الكونكورد ، الأسرع من الصوت ، المسافة بين مدينة نباح ، ومكان ظهور النسخة فى ٢٢

ساعة فى الوقت الحاضر) وهذا دليل رائع على أن أفكار البشر لا يحدها بعد المكان ولا طول السفر!

وقصة هذه النسخة أن أحد هواة التحف الأمريكيين قد حصل عليها فى مزاد نصف علنى أقيم فى مدينة كِلْسِى Kelsy ، المطلة على شاطىء المحيط الأطلسى .. ولإدراكه لقيمتها فقد ضن بها ، ولم يقدم منها صورة إلى مكتبة الكونجرس التى أصبحت تضم كل ما هو مطبوع أو مخطوط فى العالم كله .

ويحكى أن هذه النسخة ظلت فى خزانة العجوز الأمريكي إلى أن أصابه مرض عضال ، فأعطاها قبل وفاته بليلتين إلى أحد مساعديه من العرب ، فحملها هذا الأخير إلى بلاد الشرق ، وهكذا عاد إلى موطنه البرق !

والجديد فى هذه النسخة أنها مكتوبة بالحروف اللاتينية ولكن نطقها عربى فصيح . وهذا يؤكد أنها كتبت فى أثناء الحملات الصليبية . ويبدو أن أحد الرهبان الإيطاليين قد أعجب حينئذ بشعر النباحى ، فحرص على أن ينقله إلى أوروبا ، فجعل بعض الطلاب العرب ينطق أمامه الأبيات ، بينما يقوم هو على الفور بتسجيلها كما هى بالحروف اللاتينية[1]

ومن خلال الفحص الدقيق للمخطوط يتبين أن لهجة القارىء العربى يمكن أن ترجع إلى المنطقة الواقعة بين خراسان واذربيجان ، لأن حرف الظاء

(١) هنا مجال واسع لدراسة مقارنة ننصح بها بعض شباب الدارسين فى محاولة لبيان أثر شعر النباحى فى النهضة الأوروبية ، ومن هم أبرز الشعراء الذين تأثروا بالنباحى ، وحسبنا أن نشير بسرعة إلى أن النفس الشعرى لدى النباحى يشبه إلى حد كبير أنفاس كل من دانتى الأيطالى ، وجوتة الألمانى ، وهوجو الفرنسى .. والذى يبقى فقط هو إثبات التأثير والتأثر من الناحية التاريخية البحتة ، وهو موضوع جيد لرسالة ماجستير !

ينطق بصورة أقرب ما تكون إلى الذال - وهو نطق هذا الحرف لدى أهل هذه المنطقة فى الفترة المذكورة .

ومسطرة المخطوط ١٤×١٧ . وعدد السطور بكل ورقة ١٤ . وعلى هوامشها بعض الرسوم التى تصور آلات الحرب والقتال فى العصور الوسطى ..

وقد رمزنا لهذا المخطوط بالحرف (ك) - لأنه أبرز حرف فى كلمة أمريكا .

* * *

عملنا فى التحقيق :

١ - قمنا بمقابلة النسخ الثلاث السابقة بعضها على بعض مقابلة دقيقة ، واستطعنا أن نستخلص النص النهائى «القاطع» لشعر النباحى .. مع حرصنا الشديد على أن نسجل فى الهوامش كل فروق النسخ . وبالطبع وضعنا فى المتن نص مخطوطة إفريقية ، فهى كما يبدو لنا أقدم المخطوطات وأكثرها ضبطا وبيانات .

٢ - شرحنا كل الكلمات الصعبة التى وردت فى شعر النباحى ، وهى بالمناسبة غير كثيرة . أما الصعوبة التى قابلتنا فى هذا المجال فهى فهم اللغة المحلية التى استخدمها النباحى كثيرا فى شعره . وقد استعنا فى ذلك بمراجعة أهل المنطقة التى كان يعيش فيها ، مع أن معظم أهلها لم يعودوا يتكلمون نفس اللغة القديمة .

٣ - كنا نتوقف فى الهوامش أحيانا لننبه القارىء «الغافل» إلى بعض الإشارات العميقة الواردة فى شعر النباحى ، وكذلك لنشير إلى مواطن

استمداده من أشعار سابقيه . وقد بذلنا فى هذا الصدد جهدا جبارا ، لكى نربط بين شعر النباحى ومن سبقه حتى يكون حلقة طبيعية فى سلسلة الشعر العربى .

٤ – لم نشأ أن نضع فهارس تفصيلية (أماكن . أعلام . مصطلحات ... الخ) حتى لا نثقل هذه الطبعة بهذه الأمور التى لا تخفى على اللبيب ، واكتفينا بدلا من ذلك بفهرس عام لموضوعات القصائد .

٥ – لا يسعنا فى نهاية هذه الدراسة المرهقة إلا أن نتوجه بالشكر العميق لكل مراكز البحوث المحلية والعالمية التى أمدتنا بمعلومات ضئيلة للغاية عن عصر النباحى ، والتى أثارت لنا بعض المشكلات الهامشية التى لم نتمكن من حلها أثناء التحقيق !

كذلك نتوجه بالشكر الجزيل إلى كل من محمد أفندى عبدالودود ، وشاكر السحرتى على تفضلهما بمراجعة تجارب المطبعة ، وتصويباتهما الدقيقة .

وإننا لنرجو مخلصين أن تكون هذه النشرة لديوان النباحى حافزا للدارسين على أن يبذلوا مزيدا من الجهد ، وأن يتحملوا مسئوليتهم بكل أمانة ... فالطريق طويل ، والعثرات واردة ، والهدف أسمى من أن نشير إليه فى كلمات !

ثانيا :

النص المحقق

لديوان النباحى

[عندما هجاه أبو بكر الصَّرِمَّاح[١] بقوله :]

الطير فى الروض تشدو   وأنت فى الحى تنبَحْ

هَـــلّا سَكَـتَّ طــويلاً   يا أيّهـــا المتَبجِّــحْ

ردّ عليه قائلا :

١ - أنا الــذى أتغَــنّى   بمجـــد قـومى وأَصــدَحْ

٢ - وما ســواى هو الهَجْــصُ ، والصَّــدى ، والتَّبَجُّــحْ ![٢]

(١) أبو بكر الصِّرِمَّاح ، شاعر بذيء اللسان ، ولكنه كان طيب القلب . اشتُهر بكثرة الشجار مع شعراء عصره ، توفى بعد النباحى بعام واحد ، أى سنة ٥٥٦ هـ . ورثاه بقصيدة طويلة مطلعها :

اليوم غاب النباحى   فغاب ضوءُ الصباحِ

ولم يعدْ غـيرُ صـمت القـبور ، والأشـباحِ

أنظر : الشعراء الأشرار ص ٣٢٢ ، ومجمع الشجار ٢/٥٦٠

(٢) الهجص : الكلام الفارغ . والتبجح : تناول المرء مالا يحسنه مع ادعاء الإجادة فيه . ويبدو بوضوح أن البيت الثانى مأخوذ من قول المتنبى :

فدع كل صوتٍ بعد صوتى فإننى   أنا الصائحُ المحكىُّ والآخر الصدى

[وقال حين عاتبته زوجتُه على قلة ماله :]

١ - تُسَائِلُنِى أمُّ العـيـالِ ، وقـد مـضـى

من الليل نَزْعٌ : مـا لجـيـبك خـالِ؟

٢ - فـقلتُ لهـا : إنى فـقـيـر ، وإنما

سـيـَرْفِـدُنى عند المُلِمَّـةِ خـالى

٣ - فقالتْ : لقد أرهَقْتَنِى فى معيشتى

وشـوَّهتَ فـى وجـهـى مـعـالمَ خـالى(١)

(١) الخال فى البيت الأول : صفة تعنى الفراغ ، والخلو من المال ، وفى الثانى تشير إلى القريب ، الذى هو أخو الأم ، أما فى البيت الثالث فالمقصود به علامة الحسن فى الخد .

وقد استخدم الشاعر - ببراعة فائقة - هذه الألفاظ الثلاثة المتطابقة فى اللفظ ، والمختلفة فى المعنى على نحو يندر أن تجده لدى أحد من الشعراء المولدين !

[وقال يمدح رمح الدولة الشَّمْخَانى(١)]

١ - تُؤَرِّقُهُ فى كل ليلٍ كواكبُهْ
ويُصغى له التاريخُ ، والمجد صاحِبُهْ

٢ - يُفكِّر فى الجُلَّى ، فَيُطلع شمسَها
ويُقدِم كالضرغام ، لا شىء حاجِبُهْ

٣ - إذا (زَغَرَتْ) عيناه أرعد خصمُهُ
وإن سمحتْ كفّاه أُغرق طالبُهْ

٤ - قَصَدْتُ حِمَاهُ راغباً فى نوالهِ
فَأَعْطَى وَأَعْطَى .. ما تَوانَتْ سَحَائِبُهْ

٥ - هو الملكُ الصِّنديدُ ، يَبْرُقُ تاجُهُ
وتَزْحَمُ آفاقَ البلادِ ركائبُهْ

٦ - تَدِينُ لَهُ الأَفْلاكُ حَتّى كَأَنّما
يُوَاكِبُهَا فِى سَيْرِها ، وَتُوَاكِبُهْ

(١) هو رمح الدولة الشمخانى . كان يطمح أن يكون مثل سيف الدولة الحمدانى ، ولكن همته قعدت به . تولى حكم مدينة نباح مدة شهرين وثلاثة أيام ، ومات مفلوجا ، ويقال : ميطونا . كان قصير القامة ، محدودب الظهر ، وفى كلتا عينيه حَوَلٌ واضح . ويقال إنه كان من أجبن الناس وأشدهم بخلا .

انظر ترجمته فى «فرحة المجالس بمصير الأشاوس» ١٣٢/٧ .

[وقال يشكر صديقا على هدية :]

١ - نَادَانِى صَوْتُك فى نَوْمِى واهـتزّ عليـه الشّـبّاكُ

٢ - وفتحـتُ اللّفَـةَ ملهـوفاً فـإذا فى اللفّـة أَسْمَاكُ

٣ - البُلْطِـى خَالَطَـهُ البُورى بالعُرْبِ اختلط الأتراكُ

٤ - واصْطَفّ المقْلى والمشْوِى دَارَتْ فى عَيْنِى الأَفْلاكُ[1]

٥ - وهتفتُ : أخيراً حَـالَفَنِى ... ...

(١) وردت هذه القصيدة مبتورة فى النسخ الثلاث . ويبدو أن النباحى لم يتمكن من إكمالها ، وقد أوردناها على حالها لنثبت - على عكس ما ذهب إليه بعض الباحثين - أنه كان من أكله اللحوم (الأسماك) ، وليس «نباتيا» كما يزعمون .

وقال فى عصفور (كان قد تعوّد أن يغرد على نافذته لفترة طويلة ، ثم اختفى ..) :

١ - سَكَتَ الروضُ حينما غاب عنِّى

وهوتْ لعنةُ الخريفِ بأُذْنِى

٢ - أين منّى هذا المغرِّدُ فى الفجر ،

وقبل انبلاجه ... أين منِّى ؟

٣ - ليتنى كنت قد حبستُك فى العين ،

وأطبقت فوق صوتك جَفْنِى (١)

٤ - فَلِمَنْ أَسمعُ الغداة ؟! لبومٍ

أم لغربانَ تطرد النوم عنِّى

٥ - عَلِمَ اللّهُ ... لم أزل أتلوّى

فى فراشى ، وأنت أعذبُ لحنٍ

٦ - تترامى إلىَّ فى هيئة الحُلْم ،

وتأتى إلى هنا .. وتُغَنِّى!

(١) فى س : «قد حبستك فى الصدر»

[وقال فى رثاء مصطفى بن الأَشْهل النَّجَاتى(٢) :]

١ - خَطَفَ الموتُ مصطفى	فهل المـوت يُشْـتَكى
٢ - امْسَحُوا أدمعَ الأسى	إنـه مـات ، مـا بَكَى
٣ - كـان شهـماً ويائسـاً	عـاش صَـلْداً ومنهكـا
٤ - فـاتركـوهُ لقـبرهِ	إنمـا القـبرُ متَّكـا
٥ - وأفيـقـوا لحـالكـمْ	حيثُ يُسْتَحْسَنُ البُكَا !

(١) كان مصطفى بن الأشهل من كبار العتالين فى سوق نباح ، يقال إنه كان يرفع طن الحنطة من فوق الأرض دفعة واحدة . كان محبوبا من جمع زملائه ، وصديقا للنباحى . توفى فى ريعان شبابه وهو واقف على قدميه . انظر «الأحمال والأثقال» ص ٢٣٤ طـ . كلكتا بالهند سنة ١٨٠٢ .

[وقال مفتخرا :]

١ - أنا ابنُ قومٍ تَسَامَى بيتُهم ، وَعَلَا
حتّى لقد جاوزَ العشرين أَدْوَارا

٢ - بهِ الشبابيكُ لم تُغْلَقْ على دَغَلٍ
والبابُ يدفعُ أضيافاً وزُوّارا[١]

٣ - يبكى الرضيعُ لنا فى غير مَخْمَصَةٍ
ويملأُ الليلَ تَصْخَاباً وإعْصارا[٢]

٤ - كم اشتكى منه جيرانٌ ، فقيل لهمْ
إنّ الصغيرَ يُغنِّى ، فاتركُوا الدارا[٣]

(١) فى ك : «الباب يقذف» والمقصود كثرة من يطرقون الباب سواء كانوا داخلين منه أم خارجين !

(٢) تصخاب مصدر على وزن تفعال . وهو استخدام نادر لا يقدر عليه إلا فحول الشعراء .

(٣) فى (س) زيادة بيت بعد البيت الرابع يقول :

هذا حصانى أمام الباب مُرْتَبَطٌ ... وليس يَعْجِزُ بالحنطور إنْ سارا

[وقال يصف قصة زواجه الأول :]

١- وُعُـــودُكِ ، أَمْ هـذا الســـرابُ المؤمَّلُ

وهَـجْــرُكِ ، أَمْ هـذا القطارُ المحــوَّلُ[١]

٢ - ولولا عـيـونٌ حين ترنو صـغـيـرةٌ

لأعلنتُ صَــرْمِى ، والقطيـعـةُ أجـملُ

٣ - جدائلُ يَفْنَى المُشْطُ فى خُصُلَاتِها

ويجــمـعُــهـا المنديلُ حينَ تَهَـدَّلُ[٢]

٤ - وعند مَسيلِ الخَدِّ حَرْقٌ من الصبا

وخلف شِـــحَـــام الأُذْنِ يظهـــر دُمَّلُ

٥ - ومـهما سَعَتْ سلمى لتُخْفيهِ ، إنَّهُ

يُزَيِّنُهــا فى ضِــحْكِهــا ، ويُجَــمِّلُ

٦ - كـتـبتُ لهـا يومـاً خطاباً فـمـزَّقَتْ

خطابى ، وقـد يجـفـو الجـمـيلُ وَيثْـقُلُ !

(١) يشير النباحى بالقطار إلى قافلة الإبل التى تسير متتابعة فى خط واحد ، وكان بإمكان قائدها أن يحول خط سير القافلة كلها بمجرد أن يأخذ بزمام الجمل الذى يقوده إلى ناحية معينة . وكان هذا العمل يثير غضب من فى القافلة ، تماما كما يحدث الآن حين يجرى تحويل مسار قطار ، أو طائرة .

(٢) تَهَدَّلُ : فعل مضارع أصله تَتَهَدَّلُ ، وقد أُجريتْ له عملية صرفية دقيقة انتهت به إلى هذا الوضع !

٧ – فقلتُ لها والروحُ فى الحَلْقِ : إننى
سئمتُ ، وصدرى فى الشدائد يَشْعَلُ

٨ – فإمّا وصالٌ لستُ أدرى مصيرَه
فإنّ ودادى دائما يتحوّلُ[1]

٩ – وإمّا فراقٌ يهدأُ البالُ بعدَهُ
فراقٌ لذيذٌ ، كلّما امتدّ يعْسُلُ !

١٠ – فقالتْ : لقد أطَريْتَنا فى جمالنا
فما لك عنا – رغم أنفك – مَوْئِلُ

١١ – إذا كان وجهُ الصبحِ ، فاذهبْ إلى أبى
ولا تنظرْ الخُطّابَ .. أنت المفَضَّلُ

١٢ – ذهبتُ إليه فى الصباح ، فلم أجدْ
لديه جليساً ، والعجوزُ (مُبَهْدَلُ)[2]

(١) فى س : فإن فؤادى دائما يتنقل .
(٢) فى جميع النسخ «والعجوز مُسَطّلٌ» وقد فضلنا عليه ما أثبتناه ، لأنه أحد لوازمه !

١٣ - وحين رآنى قال : أنت الذى هَوَتْ

فأنت بسلمى العامرية مُوكَلُ(١)

١٤ - شعرتُ كأنّ الأرضَ تَهْوِى بأرجلى

وأَنّى على رغم الفضاء مُكَبَّلُ

١٥ - تزوجتُها عامَيْن ، لم أعرف الهنا

وهل يهنأ الملدوغُ ، والسمُّ يَعْمَلُ

١٦ - قضى اللهُ بالتفريق بينى وبينها

فغارتْ ... وهذا البيتُ أبهى وأجملُ

(١) فى ك : «فانت بسلمى تستقل وتحمل»

وقال فى حريق (كان قد اندلع فى مخزن الغلال الرئيسى بمدينة نباح ، ثم تبين فيما بعد أن الحراس هم الذين ارتكبوا الحادث ، ليخفوا ما سرقوه !)

١ - أَشْـعَلُوها وأَبْعـدوا فـهـل النـارُ تخـمـدُ
٢ - إنهـا فـى ثيابهـمْ تـتـمـشَّـى ، وتصـعـدُ
٣ - وغـداً مـن عيونهـمْ سـوف يمـتـدّ مُوْقِـدُ
٤ - لَعَـنَ اللـهُ فِعْلَهـمْ! قُطِـعَتْ منهـمو اليدُ !

* * *

٥ - مخزنُ القمح قد هَوَى والطـواحـينُ ترقـُـدُ
٦ - واليتـامى تسـاقطوا وعلـى الأرض مـدَّدوا
٧ - أىّ ليـلٍ يَضمُّهـم أىّ ريـحٍ تُعَـرْبِدُ ؟!
٨ - كـل بـاب مُوَصَّـدٌ كـل حـبلٍ مُعَـقَّدُ !

[وقال يبكى الأطلال ويتذكر حبيبته الأولى عُنَيْزَة :]

١ - الليلُ يطفَحُ بالضَّجَرْ   والسُّحْبُ تعتصرُ القَمَرْ

٢ - ويقول صَحْبى : ما الّذى   تجنيهِ من هذا السَّهَرْ؟

٣ - أنا عاشقٌ هذا المكان ، وما عليه من الأثَرْ

٤ - هذى بقايا أكْلِهِمْ   هذى المبَاوِلُ ، والبَعَرْ

٥ - ولَرُبَّما تركوا هنا   أوها هنا بعضَ الإبَرْ

٦ - كانتْ عُنيزَةُ لا تَخِيطُ ، وكيف تُبصِرُ مِنْ عَوَرْ؟!

٧ - أيّامَ نَرْعَى الماعِزَ البَرّىَّ فى وادٍ قَذِرْ

٨ - ونروحُ نأكلُ من خَشَاشِ الأرض ما لا يَسْتَقِرّْ

٩ - وإذا تَمُرُّ قوافلٌ   تُلقِى لنا بعضَ الكِسَرْ

١٠ - فنظلّ نجرى خلفها   حتّى يلاحِقنا البَهَرْ(١)

* * *

١١ - كَبُرَتْ عُنَيْزَةُ فالتوى   كَعْبى ، وطال المُنْحَدَرْ !

١٢ - قالو لها : لا تخرجى   فتحجَّبَتْ خلفَ السُّتُرْ

١٣ - وذهبتُ أُنْشِدُ حول خيْمتِها قصائدىَ الغُرَرْ

(١) البهر : انقطاع الأنفاس من شدة الإعياء .

١٤ - حـتّى بَصُرْتُ بهـا تُغـادِرُ .. ذاتَ صُبْحٍ مُنْكَدِرْ

١٥ - فَـتَـفَـتَّتَتْ كَـبِدِى على صوت الظَّعَائن والسَّـفَـرْ

١٦ - وتمزقت رُوحِى .. كـمـثلِ الثـوب يَعْلَقُ بالشـجـَـرْ[1]

١٧ وأقمتُ فى عَـرَصَـاتِها أَظْمَـا ، فـيسـقـينى المطَرْ

١٨ - وأجـوعُ ، تُطعِـمُنى الرياحُ ، أَجوبُ صحـراءَ الخَطَرْ

١٩ - قَوْسي على كَتِفِى ، وفى كـفّى حسـامٌ منكسِرْ !

٢٠ - وإذا بَصُـرْتُ بماعزٍ تجرى ، وتعثُر فى الحُفَرْ

٢١ - برزتْ لذاكـرتى عنيـزةُ ، والصِّـبَـا ، والمنْحَـدَرْ

٢٢ - ورأيتُ فى قَسَمَـاتِهَا وجـهَ الحبيبِ المنْـدَثِرْ !

(١) مما تجدر الإشارة إليه أن التباحى هو أول شاعر - حسب علمنا - فى اللغة العربية يصف تمزق الروح بتمزق الثوب العالق بالشجرة : لذا لزم التنويه !

[وقال فى موسم الحج :]

١ - عَجِبتُ لهذا الحشْدِ من كل بُقْعةٍ

يجيء إلى البيتِ الحرامِ ، ويَبْتَهِلْ

٢ - زحامٌ كيوم الحَشْرِ، حتّى إذا انقضَتْ

مناسِكُهُمْ .. سَاقُوا الهدايا التى تَدلّ

٣ - وما أدركوا رُوحَ التضامنِ بينهمْ

فعادوا كما كانوا ينامون فى العَسَلْ(١)

(١) النوم فى العسل : تعبير يدل على التكاسل عن أداء الواجب ، والركون التام إلى الراحة .

[وقال بعد معركة خاسرة(١) :]

١ - سَقَطَ السلاحُ من المُنَاضِلْ وَهَـوَتْ على الْكَتِفِ المُعَاوِلْ

٢ - وتَكَاثَرَ الأَعْـداءُ من كُلِّ الجِـهـاتِ ، فَـمَنْ أُقَـاتِلْ ؟

٣ - وَنَظَرْتُ خَلْفِى .. لَمْ أَجِـدْ أَحَـداً يُسـانِدُ أو يُنَاوِلْ !

٤ - هَرَبَ الذين لهم أَجـولُ ، وعن مَـحَـارِمِـهِمْ أُصَـاوِلْ

٥ - تَركـوا دَمِى يَجْـرِى ، وَعَـادوا هادئينَ إلى المنازلْ

٦ - يَتَسَـامَـرُون ، ويأكُلُون ، وَيَنْعِـسُـون .. بلا مَـشَـاغِلْ

٧ - وَكَـأَنَّ شـيـئاً لم يَكُنْ وكَـأَنَّ حَـرْباً لـم تُقَـاتَلْ

* * *

٨ - سَـقَطَ السـلاحُ ، ولم يَعُـدْ فى الطَّوْقِ إلّا أَنْ أُحَـاوِلْ

٩ - فَـرَبَطْتُ جُـرْحِى واسْـتَـعَنْتُ بصَـرْخَـتِى : هَلْ مِنْ مُنَازِلْ ؟

١٠ - مَـا كـانَ فى المَيْـدان غَـيْـرِى ، مُـرْهَقَ الخُطُوَاتِ ، نَاحِلْ

١١ - الرِّيـحُ تَخْـلَعُ قامتى والبردُ يَنْشُرُ فى المَفَاصِلْ

١٢ - وَرَجَـعْتُ أَسْـحَبُ خَـيْـبَـتِى خَلْفِى ، وأُخْـبِـرُ مَنْ أُقَـابِلْ :

١٣ - «هَـذَا زَمَـانُ السَّـاقطـين ، وهـذه دُنْيَـا الأَسَـافِلْ»

(١) نلفت أنظار الباحثين عن موضوعات للماجستير والدكتوراه إلى أهمية المقارنة بين هذه القصيدة العجيبة وبين بطل سرفانتس الشهير : دون كيشوت .

[وقال ملغزا :]

١ - ما أَكْبَرَ البحرَ ، وما أَوْسَعَهْ
مَنْ ذا الّذى يَقْدِرُ أَنْ يَقْطَعَهْ[1]

٢ - إِنْ كُنْتَ لا بُدَّ له سابِحاً
فاذهبْ إلى الشّطِّ ، وَخُذْ قَوْقَعَهْ

٣ - واسْمَعْ بها : مَاذا يَقُولُ الصَّدَى
ومَنْ هو المَهْزُومُ فى المَوْقِعَهْ ؟

٤ - فَإِنْ عَرَفْتَ السّرَّ ، فاحْفُرْ لَهُ
فى الرّملِ قبراً ، وانْتَظِرْ مَوْضِعَهْ

٥ - فَقَدْ يَجِيءُ الفجرُ بعد الدُّجَى
وَقَدْ تُغَنّى هَذِهِ الضِّفْدَعَةْ !

(١) نظر النباحى فى هذا المطلع إلى قول أبى على البستى :
ما أكثَرَ العِلْمَ وَمَا أوسَعَهْ   مَنْ ذَا الّذِى يَقْدِرُ أنْ يَجْمَعَهْ

[وقال معارضا أبا نواس[1] :]

١ - كُنْ عَنِيفاً كَحُسَامِ   وامْضِ فى رأسِ اللّئامِ

٢ - وتَكَلَّمْ .. إنّما العِزّةُ فى سَيْفِ الْكَلَامِ

٣ - ربّما تَجْرَحُ ، لَكِنْ   أنتَ ضَوْءٌ فى الظّلَامِ

٤ - وشِهَابٌ في الدّيَاجِى   والْتِمَاعٌ فى الغَمَامِ

٥ - تَعِسَ الصَّامِتُ ، يَحْيَا   هَمَلاً بَيْنَ الزّحَامِ

٦ - وإذَا مَاتَ : فَبَغْلٌ   مَاتَ مِنْ طُولِ اللّجَامِ

(١) فى قوله :

مُتْ بداءِ الصّمتِ خيرٌ لك من داءِ الْكلَامِ

إنّما السّالمُ مَنْ أَلْجَمَ فَاهُ بلجَامِ !!

وانظر القصيدة فى ديوان أبى نواس .

[وقال متحدّياً من بحر المنسرح :]

١ - البَحْـرُ صَافٍ ، وشَطُّهُ دُرَرُ

فَمَا لِقَلْبِي ، وَذَلِكَ الكَدَرُ

٢ - إنْ قِيل : هَذا المكانُ مُنْتَجَعٌ

فَإِنّ رَأْسِي تَنُوشُهُ الفِكَرُ

٣ - أوْ قِيلَ : هَذَا المَسَاءُ ذو قَمَرٍ

فَوَيْحَ نَفْسِي ، مَا يَنْفعُ القَمَرُ ؟

٤ - يا لَيْتَنِي أَدْرَكتُ الّذين مَضَوْا

فَإِنّهمْ بالصَّفَاءِ قَدْ عَبَرُوا

٥ - وَلَمْ يعُدْ في المكان مُتَّسَعٌ

وَلَمْ يَعَدُ في الشَّبَابِ مُعْتَصَرُ

٦ - قد كان لي صَاحِبٌ يُعَاتِبُنِي

والعُتْبُ يَحْلُو إنْ شَقَّهُ السَّهَرُ

٧ - يقولُ : إنّ العَرُوضَ ذو حَزَنٍ

وَلَيْسَ يَعْلُوهُ مَنْ بِهِ خَوَرُ

٨ - ذاك أميرُ البحورِ : مُنْسَرِحٌ

وَمَا سِوَاهُ الآبَارُ والحُفَرُ

٩ - وَرَاحَ يَزْهُو عَلَىَّ فى شَغَبٍ

حَتّى اسْتَشَاطَتْ بِمَنْزِلى الْأُكَرُ

١٠ - وَقُلْتُ : لابُدَّ أَنْ أُنَازِلَهُ

وَسِرْتُ : لا هائبٌ ، ولا حَذِرُ

١١ - حتّى بلغتُ الْقَاعَ الّذى سَقطتْ

بِهِ الضَّحَايا ، وَأَطْبَقَ الْخَطرُ

١٢ - وَصِحْتُ : أَيْنَ الّذى يُسَابِقُنى ؟

لَهْفِى عَلَيْهِ .. اخْتَفَى بِهِ الْأَثَرُ !

١٣ - وَلَمْ يَعُدْ فى المكَانِ غَيْرُ صَدَى

شَبَّابَتِى ، فى الرِّيَاحِ ، يَنْتَشِرُ

١٤ - رَجَعْتُ للشَّطِّ بعدَ مَعْرَكَةٍ

بعَثْتُ فيها مَا كَادَ يَنْدَثِرُ

١٥ - فَهَلْ تُرَى صَاحِبِى يُعَانِدُنِى

أَمْ بَعْدَ هَذِى الأَبْيَاتِ يَقْتَصِرُ ؟

[وقال فى قاضى نباح (وكان مرتشيا) :]

١ - غَرائِبُ الأشْياءِ مِلْءُ الْبِطَاحْ
وليسَ مَنْ يُشْبِهُ قاضِى نُبَاحْ

٢ - لا يَرْفُضُ الرِّشْوَةَ مُسْتَنْكِراً
وإنّما يَقْبَلُهَا بِارْتِيَاحْ !

٣ - وإنْ أشَاعَ النَّاسُ عَنْهُ الْخَنَا
قَالَ : كَرِيمٌ يَتَلَقّى الرِّمَاحْ !

٤ - إنْ جَاءَهُ خَصْمَانِ : عَادَ الّذى
يَرْشُوهُ حُرّاً ، والنّوَاهِى تُبَاحْ

٥ - أمّا الّذِى يَطْمَعُ فِى عَدْلِهِ
فَيَدْخُلُ السِّجْنَ مَهِيضَ الجَنَاحْ

* * *

٦ - فى مرةٍ قَابَلْتُهُ صَائِحاً
فقلتُ : عفواً ، لِمَ هَذا الصِّيَاحْ ؟

٧ - فَقَالَ : أولادُ الحَرامِ افْتَرَوْا

وَصَيَّرُوا الْكونَ حِمَىً مُسْتَبَاحْ

٨ - دَلَّلْتُهُمْ ، لكنَّنى عَازِمٌ

أَنْ أقْتُلَ الذِّئبَ ، وَأَفْدِى نُبَاحْ

٩ - هَتَفْتُ : هَذَا مَطْلَبٌ يُقْتَدَى

فَأَىُّ شىءٍ بَثَّ فِيكَ الْكِفَاحْ ؟(1)

١٠ - فَقَالَ : « لَوْ تَعْلَمُ مَاذَا جَنَوْا ؟!

لَقَدْ أَبَاحُوا مَنْزِلِى للرِّيَاحْ

١١ - قَدْ نَهَبُوا الدَّارَ ، وما تَحْتَوِى»

وَرَاحَ يَبْكِى ، وَيُطِيلُ النُّوَاحْ

١٢ - هَمَسْتُ والفَرْحَةُ فى لَهْجَتِى :

لا تَبْتَئِسْ يَا صَاحِ .. مَا جَاءَ رَاحْ(2)

(١) فى س : «هذا مطلب رائع» وفى ك : «هذى بلدة تقتدى»

(٢) ننبه القارىء الغافل هنا إلى الاختصار البليغ فى جملة (ما جاء راح) أى ما جاء من غير وجه حق ضاع بسرعة وسهولة من صاحبه !

[وقال فى طبيب مدينة نباح (وكان مشهورا بالمغالاة فى أجر العلاج)(١)]

١ – أَسْلَمتُ نفْسِى للطَّبيبِ ، ولَمْ أَكُنْ
أَدْرِى بِأَنَّ الدَّاءَ فِى كَفَّيْهِ

٢ – وإذَا بِمِبْضَعِهِ البَلِيدِ يَشُقّ فى
جَسَدِى ، ويَمْضِى غَائِراً بِيَدَيْهِ

٣ – سَاءَلْتُهُ : مَاذَا يَدورُ ؟ فَلَمْ يُجِبْ
وأَشَاحَ عَنِّى لاوِياً كَشْحَيْهِ

٤ – نَاشَدْتُهُ ، وَظَلِلْتُ أرْجُو ،
والدِّمَاءُ تَسِيلُ مِنْ جُرْحِى عَلَى زَنْدَيْهِ

٥ – فَأَجَابَ : هَلْ تَرْجُو الشِّفَاءَ حَقِيقَةً ؟
فَتَسَمَّرَتْ عَيْنَاى فى عَيْنَيْهِ

٦ – فَأَضَافَ : هَذا يَقْتَضِيكَ مُبَالِغاً !
وانْهَالَتْ الأَرْقَامُ مِنْ شَفَتَيْهِ

(١) تأثير النباحى واضح للعيان فى قصيدة الشاعر السورى المعاصر نزار قبانى التى يقول فى مطلعها : أَيَظُنّ أنّى لُعبةٌ بِيَدَيه ....
وهنا تجدر الاشارة لتنبيه شباب الباحثين إلى أهمية تتبع أثر النباحى فى الشعر العربى المعاصر وخاصة لدى أعلامه الكبار ، ابتداء من البارودى ، وعلى الغاياتى ، ومرورا باسماعيل صبرى ...

٧ - أدركتُ أنّي قدْ غدوْتُ فريسةً

الذّئبُ يعْرِضُها علَى فكّيْهِ

٨ - مازالَ بِي حتّى كتبْتُ تنازُلاً

عنْ كُلّ أمْوالي لهُ ، وإليْهِ

٩ - وإذا مُمرّضُهُ يُوقّعُ شاهِداً

ويُخبّىءُ الأوراقَ في جيْبيْهِ

١٠ - وأتَى الطبيبُ يَخِيطُ جُرْحِي باسِماً

ويقولُ إنّي قدْ «صعُبْتُ عليْهِ»

١١ - غالبْتُ غيْظِي ، واحْتبسْتُ مدامِعِي

وخرجْتُ محْمُولاً علَى كتِفيْهِ

١٢ - ويقُولُ عُوّادِي : هنيئاً للّذي

نزَعَ الطبيبُ الداءَ منْ جنْبيْهِ

١٣ - فأردّ : بلْ قُولوا وداعاً للّذي

نزَعَ الطبيبُ القلْبَ منْ رِئتيْهِ

[وقال فى مجذوب (كان العامة من أهل نباح يتبرّكون به ، ويتصدّقون عليه، وعندما تُوفّى عثروا فى بيته على ثروة هائلة !) :]

١ - عَلَى الطّريق يميناً وفى الطريق شَمَالاَ

٢ - وتارةً تَتَلَوَّى وتارةً تَتَلاَلاَ

٣ - يأتِى إليكَ الحَيَارَى فَتَسْتَثِيرُ الخَيَالاَ

٤ - بهَمْسَةٍ وابْتِسَامٍ وَصَرْخَةٍ تَتَعَالَى

٥ - وَقَدْ تَقُولُ جَوَاباً وَقَدْ تقول سؤالا

٦ - وَمَرَّةً هِىَ آهٍ وَمَرَّةً هِىَ لاَ .. لاَ

٧ - وَعِنْدَمَا تَتَلَقَّى وَتَسْتَقِلّ النَّوَالاَ

٨ - تُعْطِى لِوَجْهِكَ لَوْناً وَتَسْتَزِيدُ الخَبَالاَ

٩ - أَتْقَنْتَ دَوْرَكَ حَتّى اسْتَحَالَ وَقْتُكَ حَالا(١)

* * *

١٠ - مَنْ شَكَّ فِيكَ تَهَاوَى عليهِ سُخْطُ الجَمِيعِ

١١ - وَأَوْسَعُوهُ مَلاَماً وَدِيسَ بالتَّقْرِيعِ

(١) الحال عند الصوفية مصطلح خاص يعنى حالة نفسية تتلبس الصوفى ، وتأتيه من الخارج ، فلا يستطيع لها دفعا ، وتكون لها عليه تأثيرات جسمانية واضحة . أنظر «اصطلاحات الصوفية» مادة (حال) .

١٢ - الشَّيْخُ .. ما الشَّيْخُ إلّا بِشَارَةٌ بالرَّبِيعِ

١٣ - وَنَجْمَةٌ فى الدَّيَاجِى وجَذْوَةٌ فى الصَّقِيعِ

* * *

١٤ - تَأمَّلُوا عَيْنَيْهِ وَرَاقِبُوا خُطُواتِهْ

١٥ - يَسِيرُ من غَيْرِ نَعْلٍ وَأَكْلُهُ مِنْ فُتَاتِهْ

١٦ - وثَوْبُهُ قَد تَمَطَّى البِلَى عَلَى رُقْعَاتِهْ

١٧ - فَإِنْ رَجَاهُ جَرِيحٌ أَعْطَاهُ مِنْ دَعَوَاتِهْ

* * *

١٨ - يَوْمَ الوَفَاةِ .. جُمُوعٌ أَتَتْ مِن الأَرْضِ تَسْعَى

١٩ - لِتَنْظُرَ الشَّيْخَ مَيْتاً وَتَحْمِلَ النَّعْشَ ضَرْعَى

٢٠ - عِنْدَ المَدَافِنِ صَاحُوا وَأَمْطَرُوا القَبْرَ دَمْعَا

* * *

٢١ - وَفِى المَسَاءِ اسْتَفَاقُوا عَلَى بَرِيقِ الْجَوَاهِرْ

٢٢ - الْبَعْضُ قَالَ:انْخَدَعْنَا وَتَمْتَمَ الْبَعْضُ : عَاهِرْ !

[وقال محاوراً المتنبى :]

١ - قَصَدْتُ دَارَكَ والأفكارُ تَزْدَحِمُ
وَحَوْلَ دارِكَ مَرْعَىً ، كُلُّهُ غَنَمُ[١]

٢ - فقلتُ : أَيْنَ أميرُ الشّعرِ قَاطِبَةً
(والسيفُ والرمحُ والقِرْطَاسُ والقَلَمُ)؟

٣ - قَالُوا : تَرَحَّلَ عن قومٍ ، وَقَدْ قَدَرُوا
أَلاَّ يُفَارِقَ ، قُلْتُ : الرَّاحلونَ هُمُ)[٢]

٤ - قَالُوا : حزينٌ بقَلْبِ الدَّارِ مُنْهَزِمُ
فقلتُ : أَلْقَاهُ عَلَى الحُزْنَ يَنْهَزِمُ

٥ - وَقَدْ أُسَلِّيهِ عَمَّا يسْتَجِيشُ بِهِ
فَرَحَّبَ الأَهْلُ ، واسْتَعْفَى لِيَ الخَدَمُ

٦ - فقلتُ : مَالَكَ يا أَغْلَى جَوَاهِرِنا
وَمَنْ تَنَازَعَ فيهِ العُرْبُ والْعَجَمُ ؟

(١) صاغ النباحى هذه القصيدة على غرار قصيدة المتنبى الشهيرة :
وَاحَرَّ قلباهُ مِمَّنْ قلبُهُ شَبِمُ ... وَمَنْ بِجِسْمِي ، وَحَالِي عِنْدَهُ سَقَمُ

(٢) يقول المتنبى فى قصيدته :
إِذَا تَرَحَّلْتَ عن قومٍ وَقَد قَدَرُوا ... أَلاّ تُفَارِقَهُمْ ، فالرّاحلونَ هُمُ

٧ - فاهْتَزَّ مِن وَقْعِ قَوْلِى ، واسْتَوى فَرِحَاً

وَقَالَ : حَقّاً تُغَنّى شِعْرِىَ الأُمَمُ ؟!

٨ - فَقلتُ : إنّك لَمْ تُذْكَرْ بقافِلَةٍ

إلاّ وَأَصْغَى لك الرُّكْبَانُ والبُهُمُ

٩ - فَقَالَ : لكنَّ كافُوراً تَلاعَبَ بِى

وسَيْفَ دَوْلَتِنَا أَصْغَى لِمَنْ نَقَمُوا

١٠ - لم يُعْطِيَانِى عَلَى مَا كُنْتُ مُنْتَظِراً

إمَارةً ، أَسْتَوِى فيها وَأَحْتَكِمُ

١١ - فَقُلْتُ : مَالَكَ والْحُكْمُ الذى خُلِقَتْ

لَهُ الذِّئابُ ، وَأَنْتَ النَّائى والنَّغَمُ

١٢ - أَفْنَيْتَ عُمرَك فى مَدْحِ اللِّئام ، وَمَا

جَنَيْتَ إلا سراباً مِلْؤُهُ عَدَمُ

١٣ - هَدَرْتَ شِعْرَكَ فى مدحٍ ومَفْخَرَةٍ

ما المَدْحُ والفَخْرُ إلّا الحِرْصُ والوَرَمُ

١٤ - فَقَالَ : تَعْساً لعصرٍ كان مُنْحَدِراً

وكانَ يَبْهَرُنِى الآكامُ والقِمَمُ

١٥ - فَإِنْ مَدَحْتُ مَدَحْتُ الرَّمزَ فى مَلِكٍ
وإِنْ هَجَوْتُ ، فَقَصْرٌ كُلُّهُ رِمَمُ

١٦ - لكنَّهمْ - والضَّنا - كانُوا جَبابِرَةً
الحِقْدُ يَمْلَؤُهُمْ ، والغِلُّ ، والنَّهَمُ

١٧ - فَهلْ لعتْبِكَ أَنْ يَرْضَى بمَعْذِرَتى
هتَفْتُ : عَفْواً لأَنْتَ الشَّاعِرُ العَلَمُ

١٨ - إنْ كَانَ لَوْمِى عَنيفاً .. إِنّه مِقَةٌ
(قَدْ ضُمِّنَ الدُّرَّ ، إلاّ أنّهُ كَلِمُ !)[1]

(١) البيت الأخير مأخوذ من قول المتنبى في نفس القصيدة :
هَذَا عِتَابُكَ إِلاّ أَنّهُ مِقَةٌ قَدْ ضُمِّنَ الدرَّ إِلاّ أَنّه كَلِمُ
والمقة : الحب . انظر : اللسان .

[وقال فى انهيار مدرسة نباح (وفيها قُتل عدد كبير من التلاميذ) :]

١ - سَقَط الجِدارُ على الصِّغارِ ، فَرُوِّعَتْ
فى الحَيِّ أَفْئِدَةٌ لَهُمْ وَقُلُوبُ

٢ - وَتَجَمَّعَتْ حَوْلَ النُّعُوشِ مَوَاكِبٌ
تَبْكِى ، وَتَعْتَصِرُ الأَسَى ، وَتَذُوبُ

٣ - وَأَتَى المقُاوِلُ بالمعَاذِيرِ الّتى
لا تَنْتَهِى ، وَتُقُبِّلَ المَلْعُوبُ ![1]

٤ - وَهَمَسْتُ : مَا أَهْنَا الصِّغَارَ بِجَنَّةٍ
لا ضَارِبٌ فيها وَلاَ مَضْرُوبُ ![2]

٥ - الرُّوحُ تَسْبَحُ فى نعيمٍ خَالِدٍ
وَقَدِ انْتَهى المَقْرُوءُ والمَكْتُوبُ !

(١) المقاول هو المسئول عن تنفيذ المبانى ، وكان على عهد النباحى يكلف مقاولا آخر بهذا العمل لقاء أجر أقل . وكثيرا ما كان هذا الأخير ينهى العمل بدون مراعاة للخطة الهندسية ، ولا للضمير !

(٢) البيت يشير بوضوح إلى رأى النباحى فى «العملية التربوية» ، فهو لا يوافق على ضرب التلاميذ ، وبذلك يسبق أفكار جون ديوى !

[وقال فى وزير أعفاه السلطان من منصبه][1] :

١ - خَـرَجَ الوزيرُ من الوزارة   فَـتَـرمّلتْ فى الحَىّ حَـارَهْ
٢ - غَـشّى حَوائِطَها الأسَى   طَبَخَتْ مَنَازِلُها البِصَـارَهْ
٣ - وَرأى الجميعُ وَزِيـرَهُـم   يَدَعُ الحِصَانَ إلى الحِمَارَهْ
٤ - ويَعُـودُ مُنْكُوسَ الجَـبينِ ، عليـهِ آثارُ النّشَـارَهْ
٥ - فى اللّيل ، رَاحَ الشّـامِـتُـون يُعَلّلُون لَهُ انْكِسَـارَهْ
٦ - الْبَـعْضُ يَتّـهِمُ الزّمـانَ ، وَمَـا عليـهِ من الحَـقَـارَهْ
٧ - وَالبَـعْضُ يهْـتِفُ إنّهـا الأحْداثُ تَفْـتَـرِسُ المَهَـارَهْ
٨ - وَالبَـعْضُ يَرْمُـقُـهُ لِيَـعْـرِفَ كَـيْفَ تُمْتَصّ النّضَـارَهْ
٩ - وَالبَـعْضُ يَنْظُرُ للأثَاثِ الفَـخْمِ .. يَنْتَظِرُ انْهِـيَـارَهْ
١٠ - وَتَجِيءُ زَوْجَـتُـهُ لِتُـقْـسِمَ إنّهُ «مِنْ عَيْنِ جَـارَهْ !»
١١ - وَيَظَلّ مُنْتَظِراً طويلاً   ثُمّ يَبْـتَلِعُ انْتِظَارَهْ
١٢ - وَيَقُـولُ : لَيْسَ كَـمَـا تَظُنّونَ المَنَاصِبُ والإدَارَهْ
١٣ - هِىَ لُعْـبَـةٌ مَـجْنُونَةٌ   تَسْـعَى بِهَـا رِيحُ الإثَارَهْ
١٤ - إنّى احْـتَـرَقْتُ بِنَارِهَا   وَالْمَـرْءُ تَحْـرِقُـهُ شَـرَارَهْ
١٥ - وَالْيومَ أصْـبَحُ خَالِصاً   مِنْهَا ، وَأعْمَلُ فِى التّجَارَهْ !

(١) ذهب العلامة «فيشر» إلى أن المقصود بهذا الوزير هو ابن السماك ومن الواضح مدى التعصب فى هذا الزعم . أما نحن فنذهب إلى أنه ابن النجار ، اعتمادا على ما ورد فى البيت الرابع من القصيدة ، فتأمله بدقة !

[وقال عن جرير والفرزدق :]

١ - كَـانَ الفَـرْزَدَقُ جَـالِسـاً يَوْمـاً فَـمَـرَّ بِـهِ جَـرِيرْ

٢ - قَـال الفـرزدقُ : مـا الّذى دَفَعَ الحـقـيـرَ إلى الأمـيـرْ؟

٣ - فَـأَجَـابَ : بَلْ أنتَ الحـقـيـرُ ، وَأَنْتَ مـغْـرُورٌ كَـبِـيـرْ

٤ - أَنْسَـابُنَا مَـحْـفُـوظَةٌ وَبِهَـا نُحَـلِّقُ أَوْ نَطِيـرْ

٥ - قَـالَ الفَـرَزْدَقُ : كُلُّكُمْ هَمَـلٌ ، وَعَـاقِلُكُمْ غَـرِيرْ

٦ - إِنّى مِـنَ الْقَـوْمِ الأُلَى سَـادُوا ، وَكَانَ لَهُمْ سَرِيرْ[1]

٧ - وَأَنَـا مِـنَ الْقَـوْمِ الأُلى جَمَعُوا الْبَعِيرَ إِلى البَعِيرْ

٨ - وَتَهَـاوَشَـا ، وَتَنَاوَشَـا وَغَـدَا لِمَنْطِقِـهِمْ هَـدِيرْ

٩ - وَتَجَـمَّعَ الصِّـبْـيَـانُ من كُلِّ الدُّرُوبِ عَلَى الصَّـفِـيـرْ

١٠ - وَتَوقَّـفَتْ بَعْضُ النِّسَـاءِ العَـائِداتِ مِنَ الْغَـدِيرْ

١١ - وَاصْطَفَّ (بَيَّـاعُ البَطَاطَا) جَنْبَ (بَائِعَـةِ الفَطِيـرْ)

١٢ - حَـتّى مَـضَى بعضُ المسـاءِ ، وَكَـانَ فِى يوم مَطِيـرْ

١٣ - دَخَلَ الفـرزدقُ دَارَهُ مُـتَـثَـائِبـاً ، وَمَـضَى جَـرِيرْ!

(١) المقصود : سرير الملك ، وليس بالطبع السرير الذى ينام عليه الناس .

[وقال قبل وفاته بأيام(١) :]

١ - أُحِـسُّ وَقْعَ النِّهَـايَهْ	يَطْوِى فُـصُـول الرِّوايهْ
٢ - وَعَنْ قَـرِيبٍ سَـتَـهْـوِى	مِــن الْمَعَـاقِلِ رايَـــهْ
٣ - وَرُبَّمَــا قَـــالَ قَـوْمٌ :	قَـدْ عَـاش مِنْ غَـيْـرِ غَـايَهْ
٤ - وَرُبَّمَــا قَـــالَ قَـوْمٌ :	قَـضَـى شَـهِـيـدَ الغِـوَايَهْ
٥ - دَعِ الْجَـمِـيعَ ، وَأَسْـرِعْ	فَـالشَّـاىُ فِى الْغَـلَّايَهْ(٢)

(١) أجمعت النسخ الثلاث على وضع هذه القصيدة فى هذا المكان ، وكان بودنا أن نضعها فى نهاية الديوان لمناسبتها هناك ، ولكننا احترمنا ترتيب النسخ المخطوطة .

(٢) هذه أول أشارة ترد فى الأدب العربى القديم عن شرب الشاى . وينبغى أن يعمل لهذه الملاحظة ألف حساب ، وخاصة عندما تجرى دراسة شعر النباحى على المستوى الانثربولوجى ، وتبادل العادات بين الشعوب والحضارات .

[وقال محاورا أبا العلاء المعرى :]

١ - يُحَاوِرُنى فى سِجْنِهِ ، وأُحَاوِرُهْ
وَهَلْ يَعْدَمُ الأَعْمَى صَدِيقاً يُسَامِرُهْ

٢ - وَأَىُّ عَمىً هذا الذى كانَ كَاشِفاً
مُفَتَّحَةٌ أَبْصَارُه ، وَبَصَائِرُهْ

٣ - تَأَمَّلَ فى الدنيا ، فَأدرك سِرَّهَا
وَكُلُّ خَبِىءٍ ، لا تدومُ سَرائِرُهْ

٤ - وَوَازَنَ أفْعَالَ الرِّجَالِ ، فَلَمْ تَكُنْ
سِوَى عَبثٍ ، واللّهوُ تُغْشِى مَظاهِرُهْ(١)

٥ - وَشَاهَدَ فى بَغْدادَ سُوقاً عَجِيبةً
بِهَا الشّعْرُ يُشْرَى جِلْدُهُ وأَظَافِرُهْ

٦ - فَعَادَ إلى أَرْض المَعَرَّةِ نَافِضاً
رَغَائِبَهُ ، والقلبُ تَدْمَى مَشَاعِرُهْ

٧ - وَلاَزَمَ بيْتاً صَارَ سِجْناً مُحَبَّباً
تُحِيطُ بِهِ أَفْكَارُهُ وخَوَاطِرُهْ

(١) فى س : مناظرة .

٨ – إذا زارَهُ ظَامٍ إلى بَعْضِ عِلْمِهِ

أفَاضَتْ عليْهِ سُحْبُهُ وقَنَاطِرُهْ

٩ – وإنْ لَمْ يزُرْهُ .. طَارَ للأمْسِ عَالِياً

يُحَدِّثُ مَنْ يَهْفُو لَهُ ، ويُنَاظِرُهْ

١٠ – تَشَكَّلتِ «الغُفْرَانُ» من فَيْضِ لَمْحَةٍ

سَمَاوِيَّةٍ ، غَنَّتْ عَلَيْهَا مَزَاهِرُهْ

١١ – وَحَاوَلَ أنْ يُعْطِى الجميعَ دَلالَةً

بِأنَّ حِصَانَ الشِّعْرِ يَخْلُدُ قَاهِرُهْ

١٢ – أقُولُ لَهُ : لَكِنّ لَيْلَكَ دائِمٌ

يَقُولُ : وَهَلْ للفَجْرِ بَابٌ أُبَادِرُهْ

١٣ – أقولُ : وَخَفْقُ الحُبِّ ؟ يَسْكُتُ سَاعةً

وَتَسْبَحُ فى صَمْتِ المَكَانِ مَبَاخِرُهْ

١٤ – إذَا كُنْتُ لَمْ أسْمَعْ صَدَاهُ ، فَصَوْتُهُ

تُزَلْزِلُنِى فى كُلِّ وَقْتٍ أوَامِرُهْ

١٥ – هَفَوْتُ إليْهِ ، غَيْرَ أنِّى حُرِمْتُهُ

وَهَلْ يَصْدَحُ المَحْرومُ والجُوعُ كَاسِرُهْ

١٦ - أَقُــــولُ : وإِهْدَارُ الأُبُوَّةِ ؟ لا يَرَى

بذلك عَـيْـبـاً ، فـالعُـيُـوبُ تُحـاصِـرُهْ[١]

١٧ - أَقُـولُ : وَهَذا الشكُّ ؟ يُسْـرِعُ قَـائِلاً:

وَأَىُّ فُـؤادٍ تَسْـتَـقِـرُّ خَـوَاطِرُهْ

١٨ - إذا كَــانَ إِيمانُ العَـوام دَجَـاجَـةً

فـإِنَّ يَقِـينى لَيْسَ تَهْـدَا كَـوَاسِـرُهْ

١٩ - أَقُـولُ : لَقَـدْ أَلْزَمْتَ نَفْسَكَ بالّذى

تَرَخَّصَ ، والإنسـانُ يَعْـجَـزُ طَائِرُهْ[٢]

٢٠ - يُجِـيبُ بِأَنّ الشِّـعْـرَ لا يَمْنَحُ الّذى

يَظَلّ عَلَى شَطّ النَّجَـــاةِ يُدَاوِرُهْ

٢١ - ولَكِنّه يُعْطِى لِمَنْ خَـاضَ فى الأَسَى

وَأَوْغَلَ فى الآلام ، والمَوْجُ عَـاصِـرُهْ

٢٢ - أَقَـولُ : لَقَـدْ حَـيَّرتَ مَنْ رام فَـهْمَكُمْ

يَقُـولُ : أَنَا الحَـيْـرانُ ، ضَلَّتْ نَواظِرُهْ

(١) المقصود بإهدار الأبوة : عدم إقباله على الزواج ، حتى لا ينجب اطفالا يتعذبون مثله ، والإشارة هنا إلى بيته الشهير : هَذا جَنَاهُ أَبِى عَلَىَّ وَمَا جَنَيْتُ عَلَى أَحَدْ

(١) الاشارة هنا إلى طريقة «لزوم ما لا يلزم» التى اتبعها المعرى فى ديوانه الكبير اللزوميات .

٢٣ - لَقَدْ عِشْتُ لَا أَدْرِى ، فَمَاذا يَضِيرُكُمْ ؟

أَنا اللّيلُ مَسْدُولٌ عَلَيْهِ سَتَائِرُهْ

٢٤ - تَغَرَّبْتُ عَنْ عَصْرِى ، وَمَا كُنْتُ نَادِماً

وَقَدْ يَهْلَكُ الْعَطْشَانُ ، والمَاءُ حَاضِرُهْ

٢٥ - إِذَا كَانَ بَعْضُ النّاسِ أَغْلَى بِضَاعَتِى

فَمَا كَانَ قَصْدِى أَنْ تَزِيدَ خَسَائِرُهْ ![1]

(١) تحسم خاتمة هذه القصيدة الجدل الدائر حول المعنى الحقيقى لأشعار المعرى المحيرة ، فضلا عن أنها تلقى الضوء على ما كان يتمتع به النباحى من مقدرة على الغوص فى نفسيات شعراء العرب الكبار .

[وقال فى رثاء حماره :]

١ - نَفَقَ الحِمارُ ، فَمَنْ أُصاحِبْ وَأَخلَّ بى زَيْنُ الرَّكَـائِبْ

٢ - وَبَقِيتُ وَحْدِى فَوْقَ قَارِعَةِ الطَّرِيقِ كَظِلِّ رَاهِبْ

٣ - أَمْشِى فَتَعْثُرُ خُطْوَتِى أَعْيَا ، فَلا أَجِدُ المُصَاحِبْ

٤ - وَأُشِيرُ للرُّكْبَانِ لا يَتَلَفَّتُونَ ، وَلا مُجَاوِبْ !

* * *

٥ - كَانَ الحِمَارُ سفينتى تَجْتازُ بى أَعْتَى المَصَائِبْ

٦ - وَيُقِلُّنى بكَفَاءَةٍ وَيشِيلُ مُخْتَلِفَ الحَقَائِبْ

٧ - وإذا شَعُرْتُ بِوحْدَتِى حَدَّثْتُهُ عَمَّا أُغَالِبْ

٨ - فَيَظَلُّ يَسْمَعُنِى بِلا ضَجَرٍ ، وَيَجْتَنِبُ المَقَالِبْ(١)

* * *

٩ - كَانَ الحِمَارُ يُحِسُّ مِثْلى بالصُّعُوبةِ والمَصَاعِبْ

١٠ - ولَطَالَمَا هَطَلَتْ مَدَامِعُهُ على ذِكْرِ الرَّوَاتِبْ

١١ - وَرَثَى لضَعْفِ وَسَائِلى عَمَّا أَرومُ مِنَ الرَّغَائِبْ

* * *

١٢ - كَانَ الحِمَارُ مُثَقَّفاً مِنْ طُولِ مَا شَهِدَ العَجَائِبْ(٢)

(١) المقالب هنا جمع مقلب ، والمقصود بها أكوام القمامة العالية التى تعترض طريق الراكب والسائر على السواء

(٢) ورد عند الجاحظ فى كتاب «الحيوان» وصف كل من الديك والكلب بأنه مثقف أو ذو ثقافة . والمقصود بذلك أنه ماهر فى أداء العمل . أما وصف الحمار بالثقافة عند النباحى فيقترب كثيرا من المعنى المعاصر لكلمة مثقف !

١٣ - وَتَشُــدُّ أُذْنَيْــهِ أَحَــاديثُ الجَــوَائِزِ والمَنَاصِبْ

١٤ - وإذَا رآنى غَـاضِـبـاً ألْقَـى بنَظْـرَتِهِ يُعَـاتِبْ

١٥ - وَكَـأنَّما يُفْـضِى إلىَّ بأنَّ هذَا العَـصْـر «ضَـارِبْ»[1]

١٦ - وَبأنَّ أحْكَامَ الزَّمَـانِ على المَوَاهبِ « ضَـرْبُ لازِبْ »[2]

١٧ - وَبأنَّ أغنيــةَ السُّـقـوطِ تَقُـولُ للبَنَّاءِ : « حَـاسِبْ! »[3]

١٨ - وَبأنَّهمْ يتَـهَـافَـتُـونَ مَـوَاكِـبـاً تَتْلُو مَـوَاكِبْ !

* * *

١٩ - بِالأمسِ لَمْ يَذُقِ الشَّـعِـيـرَ ، وَكَـانَ مُنْتَـفِخَ الجَـوَانِبْ

٢٠ - وَبَدا كَـأنَّ بِهِ اكْتِئَاباً والكَـآبَةُ لا تُغَـالَبْ

٢١ - حَـاولتُ أنْ أمْـضِى بِهِ فِى نُـزْهَـةٍ بينَ المَلاعِـبْ

٢٢ - فَـأبَى المَسِيرَ ، وَلَمْ يكُنْ يَأبَى ، وَفَضَّـل أنْ يُرَاقِـبْ

٢٣ - وَمَـعَ الصَّباحِ وَجَدْتُهُ مُلْقىً ، عَلَى إحْدى المَصَاطِبْ

٢٤ - أخْـرَجْـتُـهُ ، وَدَفَنْتُـهُ وَتَركْـتُـهُ ، والدَّمْـعُ غَـالِبْ

٢٥ - أصْبَحْتُ وَحْدِى فى الطّرِيقِ ، وَلَيْسَ لِى فى الدَّرْبِ صَاحِبْ !

(١) ضارب : غير منضبط العقل ، ولا منطقى التفكير .

(٢) « ضرب لازب » : صـدفة .

(٣) « حاسب » فعل أمر بالتوقف أو التنبه .

[وقال فى مطرب ردىء :]

١ - سَمِعْنَاهُ على مَضَضٍ ... وَلَمْ يَرْحَمْ لَنَا أُذُنَا

٢ - وَظَلَّ يَمُطُّ فى المَوَّالِ ... طُولَ اللَّيْلِ مُفْتَتِنَا

٣ - وحينَ رأى مَوَاجِعَنَا ... تَوَقَّعَ صَوْتَهُ سَكَنَا

٤ - وَلَمْ يَلْحَظْ بِأَنَّ غِنَاءَهُ المَرْذُولَ يَجْلِدُنَا

٥ - وَيَعْصِرُنَا ، وَيَنْفُخُنَا ... وَيَمْلأُ صَدْرَنَا حَزَنَا

٦ - وَيجْعلُنَا نَشقّ ثِيَابَنَا ... وَنُخَاصِمُ الزَّمَنَا[1]

(١) فى ديوان الشاعر الرقيق أحمد الزين قصيدة مماثلة عن مطرب ردىء ، ويقال إنه كان شهيرا جدا ، دعاه إلى سماعه أحد أصدقائه ، وهو يقول فى آخرها ، متهكما على صديقه الذى سبب له هذا الإزعاج :

جَزَى اللّهُ المغنّى كلَّ خيرٍ ... عَرَفْتُ بِهِ عدوّى مِنْ صَدِيقِى !

[وقال لا مباليا :]

١ - خَلَعْتُ في الدَّربِ ثَوْبي وسِرْتُ عُريانَ وَحْدِي

٢ - تَجَمَّعَ الناسُ حَوْلي واسْتَغْرَبُوا للتَّحَدِّي

٣ - البَعْضُ أنْكَرَ فِعْلي وَحَرَّفَ البَعْضُ قَصْدِي

٤ - وَلَيْسَ إلّا عَجوزٌ تَكَلَّمَتْ دونَ نَقْدِ :

٥ - « دَعُوهُ يَلْبسُ شَيْئاً فَقَدْ يُصَابُ بِبَرْدِ »

[وقال فى فقهاء عصره] :

١ - النـاسُ فى خـــوفٍ مـن النيـــرانِ
وَأَراكـــمـــو تمشـــونَ فى اطمـــئنانِ

٢ - وكـــأنّما للغـــالبـيـّـةِ (مَـــالِكٌ)
ولكمْ ضَـمَـــان الخُلدِ من (رَضْـــوانِ) !

٣ - مُـتَـفَـتِّـحين على الحـيـاةِ بكلّ مـا
فـــيـــهـــا مـــن الأَصْـنَاف والأَلْـــوَانِ

٤ - فَـــإِذا ســـألناكُمْ حكمْـتُمْ أَنّهـــا
نَجَسٌ يَفِـــيضُ بلَعْنَةِ الشّـــيْطَانِ

٥ - إِنّى لأَعْـجَبُ مِنْ قَـفَـاكُمْ يَنْحَنِى
وَيَـظَـلّ مُـنْـتَـظراً يَـدَ الـسُّـلْـطَـانِ(١)

٦ - فَـإِذا قَـصَـدْتُمْ نَحْـوَنَا ، فـوُجُـوهُكُمْ
مَـــشْـــدُودَةٌ ، وَلَكمْ قِـنَـاعٌ ثـانِ !

* * *

(١) فى س : من السلطان

٧ - وَتُطالِبُونَ الناسَ أَنْ يَتَقَشَّفُوا

وَلَكُمْ بِكُلِّ وليمةٍ كَفَّانِ !

٨ - تُفْتُونَ فى شَتَّى الأمُور بِغِلْظَةٍ

لا تَلْتَقِى وَسَمَاحَةَ القُرآنِ

٩ - أَيْنَ البَسَاطَةُ والنَّقَاوةُ والتُّقَى

أينَ امتلاءُ القلبِ بالإيمانِ ؟!

١٠ - وَيَغِيظُنِى منكمْ كَزَازَةُ بُخْلِكُمْ

ودُعَاؤُكُمْ فى الناس بالإحْسَانِ

١١ - إنِّى أُراهِنُ أَنْ أَرَى مُتَفَقِّهاً

يُعطِى فقيراً ، أَوْ يَرِقّ لِعَانِ(١)

١٢ - وَكَأَنَّمَا صِيغَتْ قلوبٌ من نَدىً

وَتَكَوَّنَتْ أُخرى من الصَّوّانِ

(١) اشارة النباحى إلى بخل الفقهاء اشارة فريدة تستحق مزيدا من الاستقراء للتثبت من صحتها .

[وقال فى الصداع :]

١ - يَنْسَلُّ فى صَمْتٍ ودون إشارةٍ
فكأنه سَهْمٌ من الأقدارِ

٢ - يحتلُّ رأسى غازياً بجُيُوشِهِ
ويُشَتِّتُ المخزونَ من أفْكارِى

٣ - لَوْ أستطيعُ قطعتُ رَأْسى فِدْيةً
لكنّه مُتَشَبِّثٌ بإسارى

٤ - يُلْقى على عَيْنَيَّ شِبْهَ عِصَابةٍ
وَيشُكُّ أعْصَابى بمثلِ النَّارِ

٥ - ويَغُوصُ وَجْهِى فى الوسادةِ عَلَّنِى
أَنْجُو ، وَهَلْ ينجُو طريدُ الثَّارِ ؟

٦ - جَرَّبْتُ أَعْشَابَ البَرَارِى كُلَّهَا
وَشَرِبْتُ أدويةً من الصَّبَّارِ

٧ - وتَظَلّ دقّاتُ الصّداعِ عَنِيفَةً
وَأَظَلُّ مُلْقَىً تَحْتَ سَقْفِ الدَّارِ

٨ - حَتّى يُفَاجِئُنِى الصباحُ بنورِهِ
وَيَعُودُ لى بَعْدَ العَذابِ قَرارِى !

[وقال فى شعراء عصره :]

١ - أيّها السائرون فى مَوْكبِ الشّعر سلاماً ، إذا قَبِلْتُمْ سَلَامى

٢ - لحظةً .. قد تُثِيرُكم كلِمَاتى

لحظةً .. قَدْ تَهُزّكُمْ آلامِى

٣ - إنّكَمْ تَجْهَدُون مِنْ غَيْرِ جَدْوَى

إنّكمْ تَعْلَقُون بالأوْهَامِ

٤ - كُلّكُمْ يَدّعى البراعَةَ فى النّظْمِ ،

وَينَسَى شَرارَةَ الإلْهَامِ

٥ - كُلّكُمْ يَشْتُمُ الزّمانَ ، وَيَنْسَى

أنّه عَالةٌ عَلَى الأيّامِ

٦ - كُلّكُمْ يَرْكَبُ المديحَ حِصَاناً

ليبِيعَ الحُكّامَ بعْضَ الكَلامِ

٧ - كُلكُمْ يطْرُقُ الهِجَاءَ ، وَيَسْعَى

فى صحيحِ الأغْراضِ سَعْىَ الزّكَامِ !

٨ - وإذا مــا رثى ، بكى بدمــوعٍ
تستـــدرّ النـــدى من الأيتـــامِ

٩ - قد أحلتم شبّابة الشّعرِ فخّاً
لاصطيـــادِ الدّينارِ بالأنغـــامِ

١٠ - خُلق الشّعرُ.. للصّبابةِ ، والبوحِ ،
وذوب الـوجـــــدانِ ، والآلامِ

١١ - خُلق الشّعرُ.. للقيادةِ ، والرّفضِ ،
وشـحـنِ القلوبِ ، والإقـــدامِ

١٢ - خُلق الشعـرُ طائراً يتـهـادى
فـــوق هذى الجبـــالِ والآكـــامِ

١٣ - فقصصتم جناحه زينـاتٍ
وجـعلتم منقـــاره فى الرّغـــامِ

* * *

١٤ - أصبح الشعـرُ لا يحرّك قلبـاً
لا .. ولا ينتــهى إلى الأفـــهـــامِ

١٥ - صار لَوْكاً من الكلام المقفَّى

وغُثاءً يأتيه أيُّ غُلامِ

١٦ - وَسِرَاعاً إلى المَحَافِل تَمْضُونَ ،

كَمِثْلِ الكِلَابِ نَحْوَ العِظَامِ

١٧ - كُلُّكُمْ يَدَّعى التَفَرُّدَ ، والسَّبْقَ ،

وَيَدْعُو لِنَفْسِهِ فى الظَّلام !

١٨ - يُشْبِهُ الشاعرُ المتيَّمُ منكمْ

بَهْلَواناً ، مُهَرِّجاً فى الزِّحامِ

١٩ - هَمُّهُ أَنْ يُصفِّقَ الناسُ حَتّى

وَلَو اهْتَزَّ مِثْلَ فَرْخِ النَّعَامِ

٢٠ - أَيُّهَا الشَّاعِرُونَ ،

مَا أَتْفَهَ القَوْلَ ، إذا كَانَ صَادِراً بدُونِ احْتِرَامِ

٢١ - أَيُّهَا الشَّاعِرُونَ ،

أَنْتمْ بِعَصْرٍ لَمْ يَعُدْ مُصْغِياً لِهَذَا الْكَلَامِ

[وقال فى طائفة لم يحددها .. ويبدو أنه يقصد حكام عصره] :

١ – الفِكْرُ تحتَ غَباءِ السّيفِ مَهْرُوسُ
والبَوْلُ خَوْفَ حُلولِ الموْتِ مَحْبُوسُ

٢ – لَكِنّنى والرّدَى جَاثٍ على كَتِفِى
صَرَخْتُ ، والصّدرُ بالأحْزانِ مَتْرُوسُ

٣ – حَسْبِى من العُمْرِ أنّى لَمْ أنَلْ فَرَحاً
وأنّ قَلْبِى عَلى الأيّام مَنْكُوسُ

٤ – وأنّ بوْحَ الأمَانِى فى مَرَابِعِكُمْ
ضَرْبٌ من العَارِ .. مَهْدُورٌ ، وَمَطْمُوسُ

٥ – تُرَاقِبُونَ شِفَاهَ الناسِ إنْ نَطَقَتْ
ومن مَفَاخِرِكُمْ فى الكَبْتِ قَامُوسُ !

٦ – أنْيَابُكُم فى ضُلُوعِ النّاسِ نَاشِبَةٌ
وَسُمُّكُمْ فى طَعَامِ الناسِ مَدْسُوسُ

٧ – وتَنْخِرُونَ عِظَامَ النّاسِ فى شَرَهٍ
لا يَبْلُغُ الدُّودُ مَا تَأتُونَ ، والسُّوسُ

٨ – فى كُلّ نَازِلةٍ من فِعْلِكُمْ سَبَبٌ
وَكُلُّ ثَوْبٍ لَكُمْ فِى خَرْقِهِ مُوسُ !

٩ - تَشَبَّثَتْ مِنكُمو الأَرْواحُ فى عَرَضٍ
والتَّاجُ فى الدّهرِ مَخْلُوعٌ ومَلْبُوسُ

١٠ - يَظُنّ وَاحِدُكُم أَنّ الخُلُودَ لَهُ
وَأَنّه مِنْ سِهَامِ المَوْتِ مَحْرُوسُ

١١ - يُقْعِى عَلَى العَرْشِ مَشْدُودٌ بِهِ أَبَداً
كَأَنَّهُ ضِفْدَعٌ بِالْجِنّ مَلْمُوسُ

١٢ - وَحَوْلَهُ زُمْرَةٌ تَشْدُو مَدَائِحَهُ
وَعَقْلُهُ من طُبُولِ المدْحِ مَلْحُوسُ

١٣ - وَإِنْ دَنا نَاصِحٌ من أُذْنِهِ جَحَظَتْ
عَيْنَاهُ .. حَتّى كَأَنّ النُّصْحَ دَبُّوسُ

* * *

١٤ - عَجِبْتُ للأرضِ تَلْقَى مِنْ مَصَائِبِكُمْ
وَيَسْتَمِرّ بِهَذَا الوَضْعِ نَامُوسُ

١٥ - فِى أَىّ نَاحِيَةٍ يَمّمْتُ .. لا أَمَلٌ
فَاللّيلُ مُشْتَمِلٌ ، والنَّوْمُ كَابُوسُ

١٦ - كَمْ انْتَظَرْتُ مَوَاعِيداً فَمَا صَدَقَتْ
وَكَيْفَ يَصْدُقُ فِى الأَوْهَامِ مَحْسُوسُ ؟!

[وقال فى أحد المماليك المُكَلَّفين بجمْع المُكُوس] :

١ - أَنْتَ فَـوْقَ الحِـصَـانِ ، فَـوْقَ الرُّؤُوسِ
شَـامِخٌ ، هَـازِئٌ بِكُلِّ النُّفُـوسِ

٢ - تَتَـهَـادَى فى نَفْـخَـةٍ وَتَعَـالٍ
تَتَلَقَّى ابْتِـسَـامَنَا بِالْعُـبُـوسِ

٣ - وَعَلَى صَـدْرِكَ النَّيَـاشِينُ تَبْـدُو
لَامِـعَـاتٍ ، كَـأَنَّهَـا لِعَـرُوسِ !

٤ - غَـيْـرَ أَنَّ الْكُرْبَاجَ فى الكَفِّ يَنْوِى
حينَ يَهْـوِى عَلَى ظُهُـورِ التُّـيُـوسِ

٥ - عَـرَفَ النَّاسُ أَنَّ بَطْشَكَ مُـرٌّ
فَـاتَّقَـوْا مُـرَّهُ بِدَفْعِ المُكُوسِ

٦ - وَرَضُـوا بِالْهَـوَانِ فى ظِلِّ سَـيْفٍ
سَلَّمَ الدَّهْرُ غِـمْـدَهُ لِخَـسِـيسِ !

[وقال متفلسفا] :

١ - نَظَرْتُ للعُـمْـرِ يَجْـرِى كـالماءِ بَيْنَ الأَصَـابِعْ
٢ - والمَوْتُ يَحْـصُـدُ حَـصْـداً وليْـسَ للمـوتِ رَادِعْ
٣ - وَكُلَّمـا قُلْتَ : مَـهْـلاً هَـوَتْ عَلَىَّ المَقَـارِعْ
٤ - وأَسْـرَعَ النَاسُ حَـوْلِى وشَـدَّنِى أَلْفُ دافِـعْ !

* * *

٥ - عَـاوَدْتُ نَفْـسِى وَجُـهْدِى قَـفَـزْتُ مِـثْلَ الضَّـفَـادِعْ
٦ - وَعِنْدَما جِـئْتُ أَشْـرِى مَـا عَـادَ فى السُّوقِ بَائِعْ!

الفهـــرس

رقم الإيداع : ٨٧٥٥ - ١٩٩١
الترقيم الدولى : I.S.B.N 977 - 241 - 045 - 1